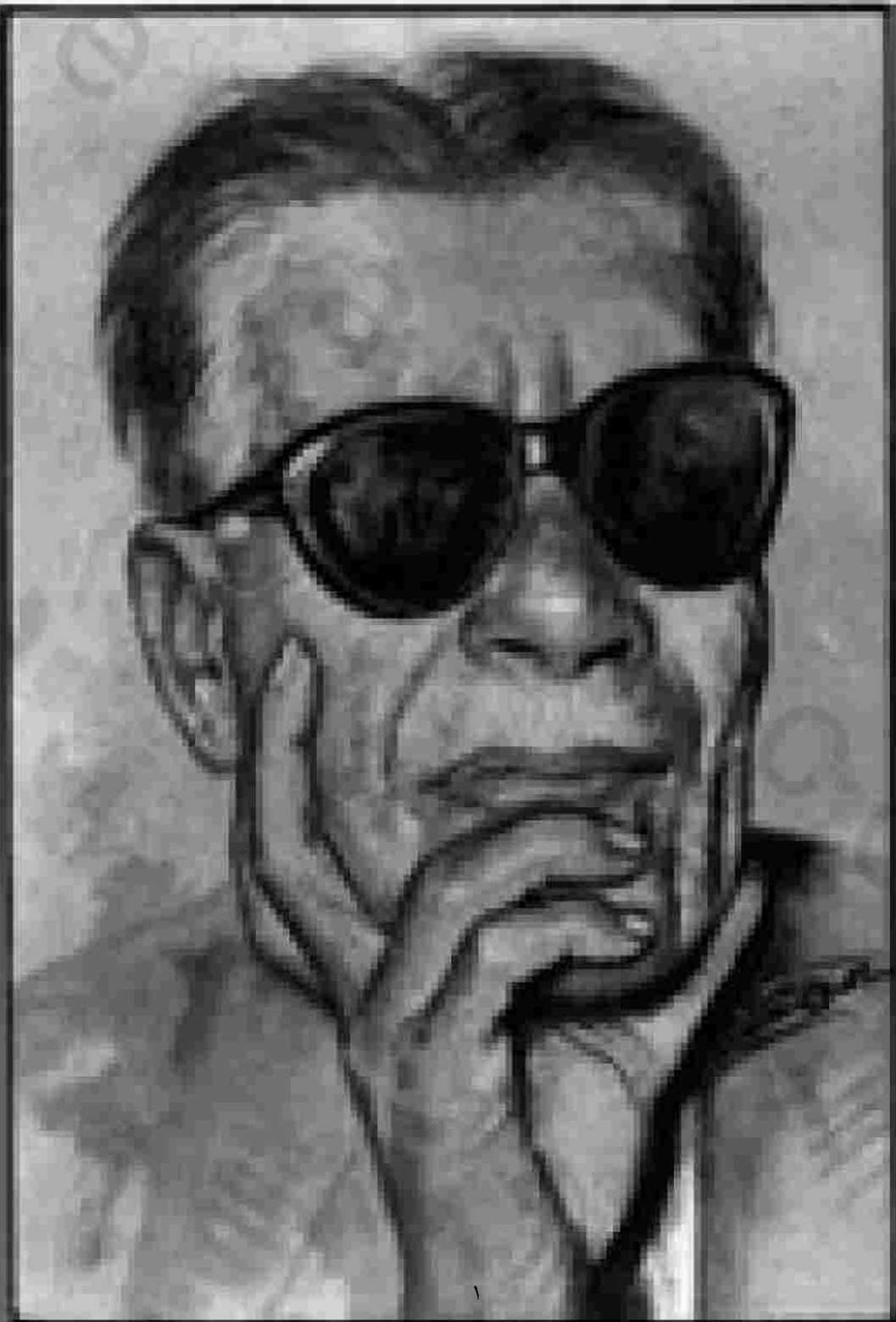


طه حسين

شجرة البؤس



دار
الكتاب
مصر

شجرة البؤس

obaidi.kandil.com

الناشر: دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج. م. ع.

هاتف: ٥٧٧٧٠٧٧ - فاكس: ٥٧٤٤٩٩٩ E-mail:maaref@idsc.net.eg

طه حسين

شجرة البؤس

الطبعة الثامنة عشرة



الإهداء

هذه صورة للحياة في إقليم من أقاليم مصر آخر القرن الماضي وأول هذا القرن، نقلتها من صدرى إلى القرطاس أثناء الرحلة في لبنان. فمن الطبيعى أن أهديها إلى هذا البلد الكريم اعترافاً بما أهدى إلى من معروف، وما أسدى إلى من يد.

طه حسين

فرغ الرجلان من صلاة العصر، ومما تعودا فى أعقاب الصلوات من تسبيح وتحميد وتهليل وتكبير ودعاء، ثم تحولوا عن مجلسيهما إلى مصطبة من ناحية من نواحي الحجرة لا تخلو من ترف؛ فهى لم تتخذ من الطين واللبن، وإنما اتخذت من الآجر، وفرشت بالرخام، وألقيت عليها بسط ونمارق، كدأب البيوت التى كان يسكنها المترفون من التجار وأوساط الناس، الذين كانوا يجدون شيئاً من الكبرياء فى تقليد السادة من البرك. ولم يكد الرجلان يأخذان مجلسهما حتى أقبل الخادم يحمل إلى أحدهما غليونيه الطويل، وأقبل خادم آخر من ورائه يحمل إليهما القهوة. وكان واضحاً أن أحدهما، وهو الذى حمل إليه الغليون، لم يكن من أهل الإقليم، وإنما كان من أهل القاهرة قد جاء إلى الإقليم زائراً لصاحبه، أو زائراً وتاجراً معاً. وقد يقبل من القاهرة إلى الإقليم فى زيارته وتجارته مرة أو مرتين فى العام. ثم شرب الرجلان قهوتهما فى أناة وبطء، لا يقول أحد منهما لصاحبه شيئاً. وأقبل صاحب الغليون على تدخينه، وأخرج الآخر من جيبه علبة بيضة الشكل فأمالها على بعض أصابعه، ثم رفع أصابعه هذه إلى أنفه وتنفس تنفساً عميقاً، ثم رد العلبة إلى جيبه وأطرق كأنما ينتظر شيئاً، أو كأنما يريد أن ينعم فى تفكير عميق. ولكن صاحبه القاهرى لم يتح له ذلك، وإنما قال له فى أناة وصوت هادئ. وحيك أبا خالد! أخشى أن نكون قد ظلمنا أنفسنا وأرهقنا هذا الفتى من أمره عسراً.

قال أبو خالد فى صوت لا تظهر عليه العناية بما سمع: وما ذاك أبا صالح؟

قال أبو صالح: إنى لم أر ابنتى قط منذ كان هذا الزواج إلا رحمت الفتى وأشفقت عليه. فما رأيت امرأة أقبح من ابنتى شكلاً، ولا أبشع منها منظرًا، ولا أقل منها دعاء للرجال.

هناك غضب أبو خالد وقال لصاحبه فى شيء من العنف: فإننا اجتهدنا لنفسنا وأموالنا، واجتهدنا لهذين الشابين، ولا علينا بعد ذلك أن يسعدا أو يشقيا، أحدهما أو كلاهما. إنها ابنتك الوحيدة، وإنه ابنى الوحيد، وإن لك ثروة ضخمة، وإن لى تجارة واسعة، وإن بيننا شركة بعيدة المدى، وإخاء قديم العهد، فلم يكن بد من أن يقترن هذان الشابان ومن أن يصير إليهما هذا المال.

وأظنك فى حاجة قبل أن يتقدم هذا الحديث إلى أن تعرف شيئاً من أمر هذين الرجلين اللذين كانا يتتاجيان. فأما أبو صالح فقد كان رجلاً من أهل القاهرة، من هذه الطبقة المتوسطة التى أخذ شأنها يظهر شيئاً فشيئاً فى أواسط القرن الماضى حين رد إلى المصريين شيء من حرية، وحين أتاحت لهم النهضة المادية شيئاً من سعة العيش. وكانت أسرته تعمل فى التجارة منذ عهد بعيد. نشأ أبو صالح هذا عبد الرحمن، فرأى أباه مصطفى تاجراً، وتحدث إليه أبوه أنه

رأى أباه تاجرًا، وأنه لم يعرف أن أسرته احترفت شيئًا غير التجارة. ولكن تجارة الأسرة كانت يسيرة قريبة المدى، حتى جاء مصطفى أبو عبد الرحمن فقدها شيئًا، ثم جاء عبد الحرمان هذا فقدها كثيرًا، وتجاوز بها القاهرة إلى الأقاليم البعيدة والقريبة. وكان يتجر في البن والسكر والأرز والصابون، ولا يكاد يتجاوز هذه الأصناف إلى غيرها من العروض. وقد نشأ في بيت الأسرة "بحى الخرنفش" نشأة قاهرية عادية، فاختلف إلى الكتاب، وحفظ شيئًا من القرآن، ثم اختلف إلى الأزهر ووعى شيئًا من العلم، ثم أعان أباه في التجارة، وتنقل بهذه التجارة في الأقاليم، ثم آلت إليه تجارة أبيه فنهاها نموًا عظيمًا.

وكان عبد الرحمن قد اشترى من سوق الرقيق في القاهرة جارية حبشية، أو جارية زعموا أنها حبشية، ولكنها كانت سوداء على كل حال. وأكبر الظن أنها لم تخل من عنصر زنجي قليل أو كثير. وقد أحسن عبد الرحمن سيرته مع هذه الجارية، فأعتقها واتخذها له زوجًا، ورزق منها ثلاثة بنين: غلامين، أحدهما صالح وبه كان يكنى، وكان يعمل معه في تجارته بعد أن نشأ نشأة أبيه؛ والآخر محمد، وقد وجهه أبوه وجهًا مدنيًا. فلم يحصل علمًا ولم يمل إلى تجارة، وإنما كان فتى متعطلاً، كان ضحية من هذه الضحايا التي تكثر في أوقات التطور والتجديد، حين تلتقى حضارة قديمة مستقرة بحضارة جديدة طارئة.

والثالثة فتاة سماها نفيسة. وقد أراد الله أن يجمع ما كان يمكن أن تتوارثه هذه الأسرة من ناحيتها من قبح الصورة ودمامة الشكل على هذه الصبية البائس. وقد نشئت هذه الصبية تشيئًا فيه كثير من الترف وكثير من العناية. وكان عبد الرحمن وامرأته السوداء قد رفا بها بهذه الصبية واختصاها بكثير من العطف لما رأيا من قبح صورتها ودمامة شكلها. وكان استهزاء أخويها. بمنظرها البشع وصورتها المنكرة يزيد رفق أبويها بها وعطفهما عليها، فنشأت الفتاة وفي أخلاقها شيء كثير من التعقيد: تحب الترف وتكلف به لأنها نشئت عليه، فأصبح لها طبيعة وأسلوبًا في الحياة.

وتحس الأشياء إحساسًا دقيقًا جدًا ولاسيما حين تتصل بها من قريب أو بعيد، وتتأذى بما يؤذى ولا يؤذى، ويخيل إليها أن في كل حديث يساق إليها أو يساق عنها تعريضًا بها أو محاولة لإيذائها. فكانت سعيدة بين أبويها، شقية بين أخويها وبين الناس، مضطربة أشد الاضطراب إذا خلت إلى نفسها، لا تعرف إلى أي الأمرين تستقر: إلى هذا الحب الذي يملؤه الحنان والعطف، والذي تجده من أبويها كلما خلت إليهما بل كلما لقيتهما، بل تحس آثاره حين لا تلقاها ولا تخلو إليهما، أم إلى هذه الازورار الذي كانت تجده من أخويها والتودد المتكلف الذي كانت تجده من الناس حين تلقاهم زائرين للأسرة، أو تلقاهم حين كانت تصحب أمها في بعض زياراتها. والشيء الذي لاشك فيه هو أن أخلاق هذه الفتاة لم تكن مضطربة ولا منسجمة ولا ملائمة للمألوف من

أخلاق أترابها، وإنما كانت تثب من الرضا إلى السخط ومن السخط إلى الرضا، وربما اضطرت إلى شيء بين ذلك ليس فيه اطمئنان ولا ثورة، وإنما هو قلق متصل، وضيق بكل شيء، وإعراض عن كل شيء. وكان هذا كله يزيد عطف أباها، وإيثارها لها بالحب والحنان، حتى كانت من غير شك أثر الثلاثة عند أبيها وأما.

ثم امتحنت الأسرة بفقد ابنيها جميعاً في خطوب لا أعرض لها الآن، فأصبحت الفتاة وحدها مركزاً لكل ما كان الأباوان يملكان من حب وبر.

وقد ارتحل عبد الرحمن في بعض شأن التجارى إلى مدينة من مدن الأقاليم بعيدة عن القاهرة بعداً شديداً، في ذلك الوقت الذى لم تكن فيه القطر ولا السيارات، والذى كان يرتحل الناس فيه على ظهور الدواب أو على ظهور السفن التى تشق بهم النيل مصعدة حيناً وهابطة حيناً آخر. وكان عبد الرحمن لا يسافر إلى الأقاليم إلا بعد أن يقدم بين يديه طائفة من السفن قد حملت ما شاء الله أن أتحمّل من عروض التجارة، حتى إذا بعد عهده شيئاً بإقلاع هذه السفن وظن أنها قد كادت تبلغ غايتها سافر هو من القاهرة سفراً غير قاصد، وبلغ الغاية أن تبلغها السفن. وهناك يتلقى سفنه ويعمل فى تجارته، فيبيع ويشترى، ويأخذ ويعطى، ويرد سفنه إلى القاهرة وقد تخففت مما كانت تحمل، ولكنها أثقلت بعروض أخرى تحمل من الأقاليم إلى القاهرة. وكان هذا كله يضطره إلى أن يبقى فى مدن الأقاليم أوقاتاً تطول وتقصّر، فلم يكن له بد من أن يتخذ الأصدقاء من عملائه التجار، ومن أن يتخذ الأصفياء الذين يؤوونه إذا كان فى هذه المدينة أو تلك، والذين يؤويهم حين كانوا يهبطون إلى القاهرة لمثل ما كان يرحل له من البيع والشراء. وكان عميله فى هذه المدينة أبا خالد بن سلام. وكان على كصديقه وعميله تاجرًا بعيد التجارة، نشأ فى قرية من قرى الريف فى مصر السفلى، وفى أسرة من هذه الأسر التى كانت تتجر بالماشية وتحصل من هذه التجارة مالاً عظيماً. ثم رأى أبوه سلام ذات يوم أن أهل القرى يستكروهم على امتلاك الأرض واستثمارها، وكان أبغض شيء إليه أن يكون صاحب أرض وزراعة، يتعرض لما يتعرض له الفلاحون من الظلم والعنف، ومن القسوة والشدة، ومن هذه السياط التى كانت تأكل أجسامهم حين يقصرون مع سادتهم أو مع الحكومة، أو حين يتهمم سادتهم وتتهمهم الحكومة ظلمًا بالتقصير، ففر سلام بأسرته وذهب وفضته إلى مصر العليا، واستقر فى مدينة من مدنها، واستأنف فيها حياة التجارة. ولكنه لم يتجر فى الماشية، وإنما اتجر فى البن والسكر والأرز والصابون. وقد نمت تجارته، واستطاع أن يترك لابنه على ثروة لليس بها بأس. وكان سلاماً هذا قد أورث ابنه ما كان يمتاز به من حب الحرية، وتجنب السلطان، والاجتهاد فى ألا يخضع لحياة تفرضه عليه القوة أو النظام فرضاً. فقد شب على فرأى الحكومة

تريد أن تستكره الناس على أن يعملوا في الجيش، فلم يتخرج من أن يطيح إبهامه، حتى إذا تقدم للفرز رد لأنه ليس صالحًا للخدمة العسكرية.

وولد له ابنه خالد، فدفعه إلى الكتاب كما دفعه أبوه هو إلى الكتاب. ولكنه رأى الحكومة تريد أن تستكره الناس على أن يتعلموا في المدارس النظامية، وكان يرى هذه المدارس إثماً من الإثم وزوراً من الزور، فهرب ابنه من المدينة وجد في تهريبه حتى علمه التعليم الموروث، فحفظه القرآن جالساً على حصر الليف، ونزّهه عن هذه المدارس التي لا يتعلم الصبيان فيها شيئاً، وإنما يلوون ألسنتهم بالتركية وبلغة أخرى يسمونها لغة الفرنسيين. وكان يكره الترك كرهاً شديداً لا يتصور التركي إلا ظالماً غاشماً، لا يعرف عدلاً ولا ديناً ولا قانوناً ولا احتشاماً. وكان يكره الفرنسيين كرهاً شديداً، يذكر ما كان الناس يتحدثون به عنهم نم الشر. ولكنه كان يحب الدنانير الفرنسية ويؤثرها على غيرها من النقد ولا يكاد يجتمع له شيء من ذهب أو فضة إلا استبدل به دنانير نابوليون.

وقد تقدمت السن بابنه خالد حتى كاد يبلغ العشرين. وهو لم يصنع شيئاً إلا أنه حفظ القرآن، وجعل يعمل مع أبيه في تجارته يقبل عليها حيناً وينصرف عنها أحياناً، ويؤثر الاختلاف إلى المساجد يشهد فيها الصلوات ويسمع فيها للشيخ والوعاظ، فإذا كان الليل اختلف إلى مشايخ الطرق فشاركهم في حلقات الذكر. وكان أبوه لا يكره منه هذا، وإنما يرى فيه طاعة وتقوى، وكان يجتهد في أن يحبب إلى ابنه طريقة بعينها هي التي اتخذها لنفسه طريقة. وحمل صديقه القاهري عبد الرحمن على أن يأخذ بها العهد عن شيخه. وقد وفق على من ذلك لما أراد، فأصبح ابنه خالد يتعصب لشيخه وطريقته أكثر مما يتعصب للتجارة، حتى أشفق الشيخ نفسه على هذا الشاب أن يغرق في التصوف وينتهي إلى الانجذاب، فقال لأبيه ذات ليلة بمحضر صديقه عبد الرحمن قبل أن يقيم الذكر بقليل: يا علي؛ زوج ابنك، وليعنيك على ذلك عبد الرحمن، فإنني أخشى عليه الولاية وهو لم يخلق لها. ثم تلا الآية الكريمة:

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ (٧٢)

وانصرف الصديقان عن الشيخ بعد أن تفرقت حلقة الذكر، لم يقل أحدهما لصاحبه شيئاً في شأن هذا الأمر الذي صدر من الشيخ إلى علي أن يوج ابنه، وإلى عبد الرحمن أن يعينه على هذا التزويج. وراح علي إلى أهله، فلم يتحدث إليهم بشيء، وإنما أتم حياته العاملة كما تعود أن يتمها في كل يوم بركتين كان يركعهما قبل أن يأوى إلى مضجعه، وبآية الكرسي التي كان يتلوها إذا استقر في فراشه. والتقى الرجلان حين نشرت الشمس رداءها الرقيق الرقراق على

الأرض وألبست منه المدينة حلاً رائعة مشرقة، فحيا على صاحبه، وسأله عن ليله كيف قضاءه، وعن نهاره كيف يريد أن يقضيه. وأقبل الخادم يحمل القهوة فشرباها فى رفق وبطء وصمت يقطعه حديث نزر يسير. ولكن علياً أقبل على صديقه فجاءةً يسأله: ماذا فهمت من الأمر الذى أصدره إلينا الشيخ قبل أن يقيم الذكر؟

قال عبد الرحمن متصاحكاً: فهمت أنه يخشى على ابنك من حياته هذه التى يحياها، ويأمرك بتزويجه لينصرف إلى الدنيا عن الإغراق فى أمر الدين لأنه لم يخلق ليكون شيخاً، وإنما خلق ليكون تاجراً مثلك، وفهمت أنه يكلفنى معونتك على ذلك، وأنا من هذه المعونة عند ما تريد.

قال على: معونتى على ماذا؟ ومعونتى بماذا؟

قال عبد الرحمن: ما أدرى، ولكن للشيخ إشارات لا تفهم عنه غالباً. ولولا أنى أشفق عليك لسألتك: أفى حاجة أنت إلى المال؟

قال على وهو يضحك: وهل حال مثلى تخفى على مثلك؟ أترانى قصرت فى بعض حقوق التجارة فأجلت لك أو لغيرك حقاً؟ بل أترك أحسست منى حاجة إلى التأجيل والمهلة؟

قال عبد الرحمن: فهذا ما سألت عنه نفيس منذ الليلة. وإن كرام الناس مثلك ليعنفون بأنفسهم أشد العنف حتى لا يظهر أحد على ما يحبون أن يخفوا من الأمر. وقد عرفت ما بينك وبينى من الود والإخاء، فأنا عند ما تحب من المعونة إن احتجت إليها فى تجارتك أو فى تزويج خالد؛ فإن خالداً عندى بمنزلة ابنى رحمهما الله.

قال على: بارك الله عليك فى مالك وولدك!... ولكن أفهمت معنى الآية التى تلاها الشيخ؟ قال عبد الرحمن: لم أفهماها، ولكنى قدرت أن الأمانة هى هذه الولاية التى يتعرض لها خالد على حين قد خلق للتجارة والعمل فيما نعمل فيه من أمور الدنيا. وما ينبغى أن نتحرى الدقة حين نسمع شيوخنا يتحدثون أو يتلون القرآن ويروون الحديث، فإن لهم آفاقاً لا نبلغها. ولو قد فهمنا عنهم كنه ما يريدون لكننا مثله أساتذة وشيوخاً، وأنت تعلم انه لم يؤذن لنا فى شيء من ذلك. قال على: لأراجع الشيخ فيما أراد إليه.

وأنفق الصديقان يومهما كما تعودا أن ينفقا أيامهما. فلما صليت العصر وشربت القهوة وكان التدخين والنشوق، سعى إلى الشيخ فأقاما عنده بين التلاميذ والمريدين ما شاء الله أن يقيما، وعلى يهم أن يراجع الشيخ فيما سمع منه ولكنه ولا يجرو. حتى إذا نودى لصلاة المغرب التفت الشيخ إلى على باسمًا وقال له: يا على، زوج ابنك وليعذك على ذلك عبد الرحمن، فإنى أخشى عليه الولاية التى لم يخلق لها، ثم تلا الآية الكريمة. وهم على أن يسأله، ولكنه نهض فاستقبل القبلة وأقام الصلاة وصلى من خلفه تلاميذه ومريدوه.

وكان الشيخ إذا أقام صلاة المغرب لم يفرغ لأحد بعدها، وإنما يمضى فى تسبيحه وتحميده حتى يتقدم الليل، فيقيم الصلاة الآخرة ويمضى فى تسبيحه وتحميده ساعة تطول أو تقصر حسب ما يكون من إقامة الذكر أو لا يكون، ولكنه على كل حال لم يكن يخلص لأصحابه إلا فى ساعة متأخرة جدًا من الليل، وقد حضر الصديقان مع شيخهما صلاة المغرب والعشاء وطرفًا غير قصير من تسبيحه دعائه، ثم انصرفا ولم يستطع على أن يراجع الشيخ فى شيء، وإنما عاد إلى أهله مشغولاً كثير التفكير، ولكنه على ذلك لم يتحدث إليهم فى شيء، بل ركع ركعتيه وأوى إلى مضجعه فتلا آية الكرسي وترك نفسه للنوم. ثم أصبح من غده كما أصبح من أمسه حائرًا يسأل نفسه عن هذه المعونة التى طلبها الشيخ إلى عبد الرحمن، ويؤكد بينه وبين نفسه أنه سيراجع الشيخ لا محالة ليعرف منه ما أراد. وقد أقبل الصديقان على شيخهما فصليا معه المغرب والعشاء، ومضيا معه فى تسبيحه وتحميده ودعائه ينتظران حلقة الذكر. ولكن الشيخ التفت فجأة إلى الصديقين، وأعاد على على للمرة الثالثة مقالته وتلا عليه الآية. وهم على أن يسأله، ولكن الشيخ قال باسمًا: سبحان الله! ثم التفت إلى عبد الرحمن وقال: وما شأن نفيسة؟! ثم أمر بإقامة الذكر، وقد فهم عنه الصديقان ولم يستطيعا مع ذلك أن يقولوا له شيئًا، أو يسألاه عن شيء. على أنهما لم يعودا صامتين بعد أن تفرقت الحلقة، وإنما قال عبد الرحمن لصاحبه: أفهمت الآن هذه المعونة؟ قال على: قد فهمتها منذ الليلة الأولى، ولكنى لم أكن أقطع بذلك ولا أجرؤ على تقديره عن أن أحدثك فيه. قال عبد الرحمن: فإن هذا خاطر لم يخطر لى، وما كنت أعرف أن الشيخ يعلم أن لى ابنة، وأن اسمها نفيسة. قال على: فإن الشيخ لا يخفى عليه شيء من أمر تلاميذه ومريديه. ولكن ما رأيك فيما أصدر إلينا من أمر؟ قال عبد الرحمن: سنستخير الله وسنتحدث إذا كان الغد. ودخل على على أهله فرحًا مسرورًا يقول: أبشرى يا أم خالد، فستزورين القاهرة بعد قليل. قالت أم خالد مبتهجة: شيئًا لله يا أهل البيت. ولكن زوجها كان قد استقبل القبلة ليركع ركعتيه.

وكان الحديث بين الصديقين أثناء قهوة الصباح قصيرًا سريعًا حاسمًا، بدأه على حين سأل صاحبه هل استخرت الله. قال عبد الرحمن:

صدق الله العظيم: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَىٰ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾ (٣٦) وقد أرتى الأحلام شيخنا غير مرة يتلو على هذه الآية، فأفقت وأنا واثق أن الخير فيما اختاره الله.

قال على متلهلاً: فابسط يدك لنقرأ الفاتحة. قال عبد الرحمن: مهلاً أبا خالد؛ فإن بيننا وبين ذلك أمورًا ثلاثة. قال على: وما هي؟ قال عبد الرحمن: أما أولها فأن تعلم أن ابنتي قبيحة الشكل بشعة الصورة، لا تكاد تقع عليها العين إلا انصرفت عنها مشمئزة، وانحرفت عنها نافرة وأما الثاني فهو أن لابنك أمًا كما أن له أبًا، ويجب أن تعلم من هذا الأمر كله مثل ما نعلم، ويجب أن تتقل إليها في أمانة ما حدثتك به عن قبح ابنتي. وأما الثالث فهو أنك لن تتزوج ابنتي وإنما سيتزوجها خالد، فيجب أن يعلم من هذا الأمر ما نعلم ويعرف أن الشيخ لا يهدى إليه عروسًا رائعة، وإنما يبتليه بمحنة مروعة.

قال على وهو يضحك: أو ليس قد أمر الشيخ؟! أو ليس قد تلا عليك الشيخ هذه الآية في أحلامك؟! فأينا يقدر على أن يخالف أمر الشيخ؟! وأينا يقدر على أن يختار لنفسه غير ما اختار له الله؟! ثم نهض من فوره فدخل على أهله، وعاد بعد ساعة أشد ما يكون سرورًا وابتهاجًا. ثم سأل عنه ابنه، فالتمس له في المساجد حتى جئ بع بعد حين. فلما أنبأه النبأ قال في شيء من الاستحياء: وما دام شيخنا قد أمر بذلك فهو الخير.

ولم تمض إلا أيام حتى كانت سفينة من السفن تهبط عبد الرحمن وأصحابه إلى القاهرة، ثم لم يمض بعد ذلك إلا شهر أو أقل من شهر حتى كانت سفينة من السفن تصعد بعلى وأسرته إلى الإقليم وقد زاد عددها حتى بلغ الأربعة.

وليس من شك في أن أم خالد أذعنت لأمر الشيخ طائعة، وفي أن خالدًا أنفذ أمر الشيخ راضيًا مغتبطًا. ولكن ليس من شك أيضًا في أن أم خالد لم تكذب ترى نفيسة حتى ارتاعت والتاع قلبها التياغًا شديدًا. ولولا أنها كانت قوية النفس حازمة ضابطة لأمرها، لأظهرت من روعها ولعتها ما كان خليفًا أن يؤذى الفتاة وأمها ويلغى أمر الشيخ إلغاءً، ولكنها حزمت أمرها وكظمت غيظها وأوت بعد قليل إلى غرفتها فبكت ما شاء الله أن تبكى، واستقبلت زوجها كأسوأ ما يستقبل الزوج، وقالت له في نفسه وفي شيخه أسوأ ما كان يمكن أن يقال ولكن زوجها لقي هذا كله باسمًا يتلو الآية ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ﴾

فإذا أحفظته استحالة ابتسامه ضحكًا وقال: ناقصات عقل ودين. ولكنها أكثرت عليه حتى ضاق بها آخر الأمر، ولا سيما حين زعمت له أنه لا يزوج ابنه طاعة للشيخ ولا إزعانًا لإرادة الله، وغنما هو أمر دبر بليل.

هو لا يزوج ابنه من ابنة صاحبه، وإنما يزوج نفسه من ثروة صاحبه، فهو يضحى بهذين البائسين ليشترك في هذه الثروة الضخمة والمال العريض.

هنالك نهض على في تؤده واستقبل امرأته في هدوء وقال لها في صوت يريد أن يرتفع، ولكن صاحبه يكرهه على الانخفاض: تخيري، فإما أن يقعد هذا الزواج وإما أن تقصم عقدة الزواج بينك وبينى. فأقسم لنعودن إلى مدينتنا أربعة، أو لتعودن إلى أهلك وحيدة.

سمعت أم خالد هذا النذير فوجمت له وجومًا طويلًا. والغريب أنها جعلت تلتمس عند عينيها الدموع فلا تسعفانها بشيء، وتلتمس عند قلبها الثورة فلا يسعفها بشيء، وتلتمس عند لسانها كلمة ترد بها على زوجها بعض ما قال فلا يسعفها بشيء، فلما طال عليها ذلك نهضت لتصلح من شأنها. وانصرف عنها زوجها ثم عاد إليها بعد ساعة فرأها كعهده بها هادئة حازمة، في وجهها ابتسامة ضئيلة حزينة. قال على لامرأته متضحًا: أرضيت؟ قالت: لقد سمعت أبي دائمًا يقول كلما لقي مكروهًا من الأمر: رضينا بقضاء الله وقدره. ولكن ثق بأنك ستندم على ما أنت مقدم عليه من الأمر، وبأنك إن أتممت هذا الزواج لم تزد على أن تغرس في دارك شجرة البؤس.

ولم تحاول أم خالد أن تصرف ابنها عن هذا الزواج ولا أن تتفرد منه. وكان لها أن تفعل، فطاعة الزوج واجبة، وطاعة الآباء بر بهم. وقد أطاعت زوجها كارهة، فما ينبغي لها أن تثير ابنها على أبيه ولا أن تغريه بالعقوق. وعلى أن نصحت لابنها آخر الأمر، فلم تبالغ في الثناء على خطيبته، ولم تزعم له أنها رائعة الحسن بارعة الجمال، وإنما كانت تتحدث إليه بأن الشباب لا ينبغي أن يلتمسوا عند أزواجهم جمالاً ولا حسناً؛ فإن الجمال فتنة والحسن محنة ويوشك الذي يلتمس الحسن والجمال عند زوجه أن يعرض نفسه لكثير من المكروه. إنما يلتمس الشاب عند امرأته قرينة تؤنس وحدته، وأما ترزقه الود، ومديرة لبيته ومربية لبنيه، والواقع من الأمر أن ابنها كان يسمع لها معرضاً عن أكثر ما كانت تقول؛ فهو لم يكن يفكر في جمال ولا في حسن، ولم يكن يحفل بالولد ولا بتدبير أمر المنزل، ولم يكن يشفق من وحدة ولا يبتغي أنيساً، وإنما كان يطيع أمر الشيخ ليس غير، وقد أمره الشيخ أن يتزوج فهو يتزوج، فلما ما بعد ذلك فله وقته وإبانته.

وكان الفتى منذ هبط إلى القاهرة قليل العناية بالخطبة وأحاديثها، والزواج وما كان يعد له، منصرفاً اشد الانصراف إلى هذه المساجد الكثيرة التي استقر فيها الأولياء وأهل البيت، يلم بأحدها فلا ينصرف عنه حتى يلم بأحدها الآخر، قارئاً في هذا مصلياً في ذلك مطوّفاً ومتمسحاً على كل حال بما فيها من المشاهد والمقامات، مستمعاً لما كان يلقي هنا وهناك من دروس التفسير والحديث ومن الوعظ والإرشاد، منتفعاً بما كان يسمع، مدخراً في قلبه من هذا كله الأعاجيب. ولم يكن النهار كيفيه ليرضى حاجته من هذه الزيارات، فقد كان ينفق فيها شطراً من الليل، ولا يعود إلى أبويه إلا حين يهمان أن يأويا إلى غرفة نومهما. وقد خطر للفتى هذا خاطر العجيب، وهو أن يختم القرآن في طائفة من هذه المساجد الكبرى، فختمه في مسجد سيدنا الحسين، ومسجد السيدة زينب، ومسجد الإمام الشافعي، ومسجد الإمام الليث. وكان يتحدث بهذا إلى أبيه فيرضى، ويتحدث به إلى أمه فتبتسم. على أنها تعلقت به ذات يوم وأرادته على أن يزيروا أهل البيت، فهي لم تستبشر بالهبوط إلى القاهرة حين أنبأها زوجها به إلا لأنها ستزور فيها أهل البيت. ولكن الفتى لم يستجب لأمه، وإنما انصرف إلى زيارته الطويلة، وأحال أمه على ضيفها يزيرونها ما تشاء من مساجد الأولياء؛ فلم يكن يرضى عن زيارة النساء لهذه المساجد والمشاهد، ولم يكن يعجبه تشبثهن بالقبور وتمسحهن بالأضرحة وإحاحهن على الأولياء فيما كن يطلبن إليهم من قضاء الآراب وتحقيق الآمال، إنما كان يسموا إلى بركة خير من هذا كله وأبقى. كانت فيه نزعة روحية تريد أن تمتاز، لولا أنه لم يتهياً لهذا الامتياز بما ينبغي من العلم والمعرفة. وكان يجد في سعيه وكده، ويتحدث إلى نفسه بأن يوماً من الأيام قد يقبل يظهر فيه

الشيخ على ما يبذل في سبيل العلم والمعرفة من جهد فيلقى إليه بفضل من علمه اللدنى الذى لا تسقط منه قطرة ضئيلة فى قلب من القلوب إلا ملأته حكمة ونورًا. وفى ذات يوم أو فى ذات ليلة ألقى إليه أبوه هذه الكلمة التى لفتته إلى أنه لم يهبط إلى القاهرة لما هو فيه من سعى وجد، وإنما هبط إليها لشيء آخر، قال له أبوه: إذا كان الغد فلا تخرج حتى أفاك. قال الفتى: ولماذا؟ قال على: لأنى فى حاجة إليك. قال الفتى: إنك فى حاجة إلى إذا صليت العصر، أليس كذلك؟ قال على: بل أنا فى حاجة إليك إذا صليت الصبح. ثم انصرف عنه إلى بعض الأمر. وكان على قد قدر فى نفسه أنه إذا لم يستوثق من ابنه أول النهار لم يظفر به إلا حين يتقدم الليل. فلما كان الغد صحب ابنه فى زيارته لبعض المساجد، واستمع معه لبعض الدروس، وقرأ معه شيئاً من القرآن، وعاد به إلى البيت بعد أن صليت الظهر فلم يفارقه حتى تم عقد الزواج.

وأدخل الفتى على وزجه بعد أيام، فلم ينكر شيئاً ولم ينحرف عن شيء، وإنما سعد بامرأته السعادة كلها، واستيقن فيما بينه وبين نفسه وفيما بينه وبين ربه أن امرأته بارعة الحسن رائعة الجمال، خفيفة الروح، ساحرة الطرف، خلابة الحديث. وكان كثيراً ما يفرغ إلى الله فى أعقار صلواته ضارعاً إليه ألا يجعل امرأته فتنة له تصرفه عما كان يجد فيه من التقوى والتماس المعرفة. ومع ذلك فقد أنفقت أمه ليلة ساهرة مملوءة بالشقاء، ونهاراً طويلاً حافلاً بالآلام، فقد كانت تخشى أن ينفر الفتى من زوجه متى رآها، وأن يزداد منها نفوراً متى أشرقت الشمس على وجهها الدميم. وكانت تصور لنفسها ما سيجد ابنها من الوحشة وخيبة الأمل فينقطر قلبها حزناً وكانت تصور لنفسها ما قد يظهره الفتى لامرأته البائسة وأبويها الخيرين من الاشمئزاز والنفور، فتمتلئ نفسها ذعراً. ولكنها رأت ابنها سعيداً موفوراً، ورأت امرأته هائلة محبورة، فاطمأنت أول الأمر، ثم لم يلبث اطمئنانها أن استحال إلى شعور غريب، فيه شيء من خيبة الأمل فى ابنها فقد كانت تحسب أن له حظاً من ذوق، وقد كانت تظن أن له نصيباً من نخوة، وقد كانت تقدر أنه سيثور غضباً لذوقه الذى امتهن، وحفاظاً لنخوته التى لم يحفل بها أحد من مزوجيه. ولكنها ترى ابنها راضياً ناعم البال، كأنه الشاة تنعم بما يقدم إليها من عنف فتمرح وتصيح، وهى لا تقدر أن السكين قد هيئ لذبحها فى بعض المكان. ومهما يكن من شيء فقد كظمت أم خالد حدة آلامها وخيبة آمالها، وصبرت على ما كانت ترى من سخرية زوجها، ومن نظراته تلك التى كان يلقيها إليها من وقت إلى وقت كلما رأى ابنه مسروراً محبوراً، كأنه يقول لها: أرايت أنك كنت واهمة كل الوهم؟! ألا تعرفين أن كرامة الشيخ لا يعجزها شيء؟! إنها تحول القبح جمالاً، والدمامة حسناً، والبغض حباً، والنفور فتوناً. كظمت أم خالد هذا كله فى نفسها، ولكنها لم تكن من القوة وشدة الأيد بحيث تستطيع أن تحتل بعض ما امتلأ به قلبها الضعيف، فلم تمض على زواج ابنها أيام حتى أحست شيئاً من خمود حتى أبغضت القاهرة أشد البغض، ورغبت إلى

زوجها فى العودة إلى المدينة. فلما بلغت دارها أوت إلى غرفتها. وطالت إقامتها فى هذه الغرفة، ولكنها لم تخرج منها إلا إلى القبر.

وكان على يحب امرأته أشد الحب، ويؤثرها أعظم الإيثار، لا يعدل برضاها شيئاً، ولا يدخر فى سبيله جهداً. ولم تعرف أم خالد أن زوجها قد خالف عن أمرها أو تتكر لها أو خيب لها أملاً أثناء هذه الأعوام الطويلة التى قضتها عنده، بل لم تعرف منه إلا براً بها وعطفاً عليها وفناء فيها. ولولا أن الشيخ أمر بهذا الزواج المشئوم لما صمم عليه ولا ألح فيه ولننزل فى أمره عند إرادة امرأته، ولكنها عرفت حين تم هذا الزواج على كره منها أن هناك شخصاً هو أثر منها فى قلب على وأكرم منها على نفسه وأحرى ألا ترد له كلمة.

ولست أدري أكانت خيبة أملها فى زوجها أشد عليها من خيبة أملها فى ابنها. ولكن الشيء الذى ليس فيه شك هو أن هذه المرأة البائسة قد فقدت فى وقت واحد ثققتها بالزواج بالابن، واستحييت من نفسها أن يكون سلطانها على زوجها قد ضعف إلى هذا الحد، واستحييت من نفسها أن تقدم إلى جاراتها وأصدقائها فى المدينة هذه الهدية المنكرة التى أهديت إلى ابنها. ولعلها كانت سعيدة بهذا المرض الذى اضطرها إلى غرفتها وحال بينها وبين استقبال الزائرات وقد جنن يهنئنها بما كانت تحدث نفسها به، وبما تحدث كل أم نفسها به، من الفرح بابنها يوم تزف إليه عروس صالحة بارعة الجمال كثيرة المال. أعفيت من هذا كله، ولم تستقبل من الزائرات إلا هذه الآلام المبرحة التى لزمت غرفتها ليلاً ونهاراً، وهذه الحمى لناهكة التى كانت تزورها وجه النهار وآخره. وكان على أشقى الناس بهذا المرض وأشدّهم به ضيقاً، ولكنه لم يكن يقدر أنه سينتهى بامرأته إلى الموت، ولم يقدر أن إصراره على هذا الزواج كان مصدراً لهذا المرض أو كان مصدراً من مصادره. ومع ذلك فقد أحس ذات يوم أن امرأته فى آخر لحظة من لحظات الدنيا وأول لحظة من لحظات الآخرة، فجزع لذلك جزعاً شديداً كاد يخرج به عن طوره، لولا أنه كان مؤمناً حقاً. وقد اقبل على امرأته يستغفرها مما يمكن أن يكون قد قدم إليها من خطيئة أو جنى عليها من ذنب، ويسألها وصوته يرتجف ودموعه تغمر لحيته أن تدعو الله له بخير ليعلم أنها عنه راضية. قالت فى صوت نحيل ضئيل: ليكن مرضى وموتى كفارة عما جنيت بتزويج ابننا من هذه الفتاة. قال على وقد كاد صوته يحتبس فى حلقه: فإنه أمر الشيخ. قالت: وليكن مرضى وموتى كفارة عنت الشيخ أيضاً.

وقد عمّر على بعد موت امرأته عمراً طويلاً كما سترى، ولكنه لم ينس أم خالد فى يوم من أيامهم ولم يقدر قط أن الموت قد فرق بينه وبينها، وإنما استيقن دائماً أنها زوجه وأنها تعيش معه فى دارهن وأنها قد اتخذت لنفسها من قلبه مكاناً استقرت فيه فلا تبرحه. وأكثر من هذا أن علياً لم يستطع حياة الرجل الأعزب ولكنه لم يقدم على الزواج حتى أمره الشيخ أو أمر ابنه

بذلك، فقال لخالد ذات ليلة: يا خالد، زوج أباك كما زوجك، فإنه لا يقدر على حياة الرهبان. وأذن على لهذا الأمر راضياً فقبل من ابنه الزوج التي اختارها له بأمر الشيخ، كما قبل ابنه منه الزوج التي اختارها له بأمر الشيخ. ثم اختلفت الخطوب على أبي خالد فاستكثر. من الزوجات، واستباح ما رخص الله فيه للمسلمين في أن يتزوجوا ما طاب لهم من النساء مثنى وثلاث ورباع، وأنه مصمم على أن يأخذ حقه من ذلك كاملاً، فيسكن في داره أربع زوجات لا ينقصن لأن هذا حقه، ولا يزدن لأن الله حرم هذه الزيادة. ومع ذلك فلم يكن يمسه في داره إلا ثلاث زوجات؛ فإذا سئل عن الرابعة قال وعلى ثغره ابتسامة حزينة: وأم خالد ماذا تصنعون بمكانها منى؟ وكان على قد احتجز غرفة أم خالد كما تركتها لم يغير منها شيئاً؛ وكان حريصاً على العدل بين نساءه، فكان يقسم لكل واحدة منهن ليلة من لياليه؛ فإذا أعطى كل واحدة منهم ليلتها أوى إلى غرفة أم خالد فأنفق فيها ليلة زوجه الأولى مصلية قارئاً داعياً واهباً هذا كله من جهده الصالح لأم خالد، لا يفارق غرفتها ولا يتحول عن القبلة ولا ينقطع عن الصلاة والدعاء إلا أن يغلبه الإعياء والنوم. وكثيراً ما أقبل خادمه محمود يحمل إليه قهوته بعد أن تشرق الشمس في غرفة أم خالد، فيراه مكباً على وجهه قد أدركه النوم في سجوده فلم يتحول، أو يراه مضطجعا في مكانه الذي كان يصلى فيه قد أدركه الإعياء فنام حيث هو ولم يرد أن يأوى إلى الفراش.

ولم تنزل هذه حاله حتى أدركته الشيخوخة المضيئة. ونظر ذات يوم فإذا هو أعزب لا زوج لهن قد تفرق عنه نساؤه بالطلاق أو بالموت، وقد كثر بنوه وبناته وحفدته، وتفرقوا عنه لكل منهم أسرته وأهله. وثاب هو إلى غرفة أم خالد فأقام فيها لا يريم، يختلف إليه خادمه بما يحتاج إليه، ويختلف إليه أبناؤه وبناته يزورونه وهو ملازم لهذه الغرفة؛ لأنه قد نذر إن أقدره الله أن يموت حيث ماتت أم خالد. وقد أقدره الله فمات حيث ماتت أم خالد. ونظر بنوه في وصيته، فإذا هو يأمر بنيه أن يدفنوه مع أم خالد، وأن يفعلوا بعد ذلك ما يشاءون؛ فهم يعرفون ما يأتون من الأمر وما يدعون، وهم يعلمون أن الله عليهم حقاً؛ وأنه سيسألهم عن هذه الحقوق.

وقد رزق خالد من زوجه صبية سماها سميحة، وأراد الله أن تكون هذه الصبية هي التي تكشف الغطاء عن عقل أبيها وذوقه ونفسه، وتحمل كثيرًا من أهله وذوى مودته أن يعجبوا من هذه الحكمة البالغة، ومن هذه الأسرار الغامضة التي تكتنف الناس في كل ما يأتون وما يدعون، وفي كل ما يضطرون إليه من الأمر. فقد كانت سميحة آية في الجمال، ولا سيما حين تقدمت بها السن شيئًا، وأصبحت صبية تدرج في البيت. لم يحفل خالد بمنظرها أول الأمر، شغل عن ذلك بشعور الأبوة وحنان الزوج. إلا أنه ذات يوم أخذ ابنته بين ذراعيه فضمها إليه وقبلها، ثم نظر في وجهها فأطال النظر، ثم التفت إلى المرأة فنظر إلى وجهه وأطال النظر، ثم التفت إلى امرأته فألقى عليها نظرة خاطفة، ثم وضع الصبية على الأرض وقال لامرأته في صوت يقطعه ضحك عال مر: هذا غريب! من أين لهذه الصبية هذا الجمال؟ ليس وجهي بالرائع، وإن وجهك لبشع، فمن أين لها هذا الجمال؟! ووقعت هذه الكلمة من قلب نفيسة موقع الخنجر حين يطعن به عدو عدوًا، فلم تقل شيئًا، وإنما أجهشت بالبكاء ساعة، ثم أوت إلى غرفتها فلزمتها أيامًا. ولكنها منذ ذلك اليوم أحست أنها أصبحت لزوجها عدوًا.

والحق أن زوجها منذ ذلك اليوم قد تحول تحولًا منكرًا، فكان يطيل النظر إلى ابنته، ويخطف النظر إلى زوجه، ثم تبلغ القسوة به أبشع أطوارها، فهو يفصل ما في ابنته من محاسن، ويوازن بينها وبين ما في امرأته من مقابح: يوازي بين الأنف والأنف، وبين الفم والفم، وبين الجيد والجيد. يفعل ذلك فيما بينه وبين نفسه ثم لا يملك أن يجهر به، وإذا هو يتحدث إلى امرأته بما في وجه ابنته من حسن، وبما في وجهها من قبح. ولا يزال كذلك حتى ينعص عليها، وإذا هي تجهش بالبكاء وتسرع إلى غرفتها وإذا بكاءه يدفعه إلى الضحك، وإذا فرارها يملأ قلبه اطمئنانًا ورضا.

وكانت نفيسة حاملاً حين رفع الحجاب عن زوجها. فلما شق عليها ما رأت منه وشق عليه إلحاحه عليها بما تكرهه، رغبت إليه ذات يوم أن ترحل إلى القاهرة لتنتظر طفلها بين أبيها، فلم يتردد في الإذن لها، بل قال مبتسمًا: وتحملين سميحة معك، ذلك أحرى أن ينسيني ما أنا فيه من أثم؛ فإن بينك وبينى عقدة فرض الله على أن أرى حرمتها. ولم تمض إلا أيام حتى كان خالد قد هبط بامرأته إلى القاهرة، فأنزله عند أبيها، وقضى في الأسرة أسابيع متجملاً متحملاً متكلفًا ما تعود أصهاره أن يروا منه من حب لابنتهم ورفق بها، ملحًا في زيارة المساجد والمشاهد، يلتمس فيها العلم والمعرفة، ويلتمس فيها الموعظة والبركة. ولكنه يحس، ويا شر ما يحس! يحس أنه لا يكتسب علمًا ولا معرفة، ولا ينتفع بموعظة، ولا يجد هذا الروح الذي كان يجده كلما ألم

بمقام من مقامات أهل البيت، ولا يجد هذا الطموح إلى قطرة يلقيها الشيخ في قلبه من هذا العالم اللدني فتملاً قلبه حكمة ونوراً، وإنما يحس الحاجة إلى أن يطوف في القاهرة لا يلم بمساجدها ومشاهدها، وإنما ينظر إلى ما فيها ومن فيها من الأشياء والأحياء، ويوازن بين هذه الضخمة الكبيرة وبين مدينته تلك المنكشحة على ضفة النيل في بعض الأقاليم. وقد تنازعه نفسه إلى أماكن كانت تذكر له أحياناً من تلك الأفواه الغاوية، ولكنه يسرع إلى نفسه أن عقدة قد فرض اله عليه أن يرعى حرمانها، ثم يسرع إلى متجر صهره كأنما يأوى إليه وإلى صاحبه يستجير بهما من هذا الخاطر الآثم الذي مر بضميره ساعة من نهار. هناك يقيم مع صهره وأعوانه سامعاً لما يقولون، مشاركاً فيما يديرون من حديث، آخذاً معهم في بعض العمل كأنه من أهل المتجر، ثم يروح مع حميه إلى البيت فلا يخرج منه إلا إذا كان الغد. وكثيراً ما كان يلوم نفسه أشد اللوم على سيرته هذه الآثمة مع امرأته هذه البرة؛ فهي لم تخلق نفسها وإنما خلقها الله: فإنكار صورتها إنكار لما خلق الله، فيه إثم قد ينتهي بصاحبه إلى الكفر. وهي لم تدعه إلى أن يتخذها زوجاً، ولم تعرفه إلا بعد أن أحكمت عقدة الزواج، وإنما هو الذي هبط إليها من أقصى الإقليم. ثم هي لم تره منذ عرفها إلا خيراً، لم يعرف منها إلا البر به والنصح له والطاعة في كل ما أراد. فماذا جنت عليه أو ماذا قدمت إليه؟ وما باله يجزيها من الخير شراً، ومن العرف نكراً، ومن البر عقوقاً؟! ثم هي لم تخلق ابنتها جميلة كما هي، وإنما خلقها الله والله يخرج الحي من الميت، ويخرج النهار من الليل؛ فلم لا يخرج الصبية الجميلة من الأم الدميمة؟ ولو قد خيرت "نفيسة" لاختارت أن تكون ابنتها جميلة كما هي. فماذا ينتقم منها؟ وماذا يعيب عليها؟ وما هذا الإثم البشع الذي يدفعه إلى أن يفسد ما بين الأم وابنتها الصبية الناشئة، وأن يوقد في هذا القلب الكريم الرحيم هذه النار المنكرة الآثمة: نار الحسد والحقد والغيرة، وأن يغرس في هذا القلب النقي الطاهر البريء هذه الشجرة الخبيثة: شجرة الغرور والفتن والاستعلاء حتى على الأمهات. يغرس هذه الشجرة الخبيثة في قلب صبية لم تبلغ بعد الثالثة من عمرها؛ فكيف بها إذا تقدمت بها السن ومازت الجمال من القبح، وعرفت ما يحيط بالفتيان والفتيات من هذه الأهواء الجامحة!

كثيراً ما كانت هذه الخواطر تملأ قلب خالد فتملاً نفسه خزيًا واستحياء. هنالك كان يذكر أمه حين كانت تزعم له أن الشباب لا ينبغي أن يطلبوا عند أزواجهم الحسن الذي يدعو إلى الفتنة، والجمال الذي يدفع إلى الموبقات، وإنما ينبغي أن يطلبوا إلى أزواجهم القرين التي تسد عن الوحدة، وترزق الولد وتقوم على تربيته، وتدبر المنزل وتحيط زوجها بما يحتاج الرجل إليه من الرحمة والبر والحنان. وكان خالد يترحم على أمه، ويسأل نفسه فيم كانت تتحدث إليه بهذه الأحاديث؟ ألم تكن تركه هذا الزواج وتشفق على ابنها من قبح زوجه؟! ثم يأبى خالد أن يتعمق هذه الخواطر، وإنما يسرع إلى المصحف فيقرأ فيه سوراً من القرآن يهب وثوبها لأنه، ثم يقبل

على زوجه رفيقًا بها عطوفًا عليها حتى ينسيها أو يكاد ينسيها ما يمزق قلبها من الألم. وكذلك عاد خالد إلى المدينة، وترك امرأته عند أبيها وقد ظن أنها راضية، واعتقد أنه هو راض، واستيقن أنه سيلقى امرأته أحسن لقاء متى أقبل الوليد الذي ينتظرانه، وسيستأنفان حياتهما كما كانت حلوة هادئة لا يكرر صفوها شيء. ولا يكاد يبلغ المدينة حتى يسرع إلى الشيخ فيزوره، ثم يكثر من زيارته يلتمس عنده البركة والسكينة التي ينزلها الله على القلوب فيملؤها رحمة وعطفًا واطمئنانًا للأحداث، وعزاء عن الملمات، وثباتًا للخطوب.

وتمضى الأشهر ويأتى النبأ من القاهرة بأن نفيسة قد رزقت زوجها صبية أخرى، وأنها سمتها جلنار، فبيتهج خالد وأبوه بنعمة الله. وكان خالد يود لو رزقته امرأته غلامًا، وكان على يود لو جاءه ابنه بغلام. ولكن الله قد أراد، وإرادة الله نافذة، والحق على المؤمنين الصادقين أن يقبلوا نعمة الله شاكرين. والشيخ ينظر ذات ليلة إلى الأب وابنه نظرة فيها كثير من سخرة وتأنيب، وهو يقول لهما: "حسنة وأنا سيدك" أليس كذلك يا على؟ أليس كذلك يا خالد؟ إن فقراء الترك يقولون هذا لأغنياء المصريين، فأما أنتما فلا تقولان هذا لغنى من الناس، وإنما تقولانه للغنى عن الناس وعن كل شيء. ليصومن كل منكما سبعة أيام وليطعمن كل منكما أهل الحلقة فى هذا الأسبوع، وليصلين كل منكما، وليدعون وليستغفرن حتى أؤذنه بأن الله قد تاب عليه، سأعرف ذلك فى وجوهكما. ثم يتحول عنهما فيقيم الذكر. قد أدى كل منهما ما أمره الشيخ بأدائه، فصام كل منهما ودعا وتصدق واستغفر الله، ولعل كلا منهما بكى واستعبر. وهما يروحان على الشيخ فى كل يوم، فينظر الشيخ فى وجوههما ثم يتحول عنهما ولا يقول لأحد منهما شيئًا. وفى ذات يوم ينظر الشيخ إليهما وقد عرف فى وجوهكما الحزن والندم وقال: اجتهدا لعل الله أن يتوب عليكما. ومهما يجتهد الأب وابنه، فقد يظهر أن الله لم يتب عليهما لأنهما يصومان ويصليان ويتصدقان ويدعوان وفى قلب كل منهما خاطر ضئيل، ضئيل جدًا لا يكاد يحس: لو رزقنا الله غلامًا مكان هذه الصبية.

ثم يهبط خالد إلى القاهرة ليرى ابنته ويرد أهله إلى المدينة. فإذا بلغ القاهرة وأدخل إلى أهله وقدمت إليه الصبية، نظر فى وجهها ثم نظر فى وجه امرأته، ثم جهر بقراءة آيات من القرآن يرد نفسه إلى الأمن وقلبه إلى الاطمئنان؛ ويمسك نفسه أن تخرج عن طهورها؛ فقد رأى ويا نكر ما رأى، رأى ابنته الثانية صورة مطابقة لأمها أشد المطابقة، وقد تكلف الاستبشار والرضا. وأحست منه زوجه ما أحست، فلم تظهر شيئًا. ثم خلا إليه حموه فقال: أصبر نفسك على تكره يا بنى فإن الله يمتحن عباده المؤمنين بالصبر. وأقسم لقد نهيت أباك عن تزويجك من ابنتى فإنها لم تخلق للزواج. وأقسم يا بنى لقد رحمتك وأشفتك عليك وتحدثت إلى أبيك فى ذلك، ولكن الله أمرًا هو منفذه وحكمة هو بالغها.

قال خالد وقد ثاب إلى عقله وقلبه كله: فإنى لا أفهم عنك ما تقول منذ اليوم. علام أصبر وفيم أمتحن وما رأيت منك ولا من زوجى إلا خيراً، وما أنكرت شيئاً وما ينبغى أن أنكر شيئاً؟! أفترى نفيسة قد شكت إليك بعض قسوتى عليها فى الدعابة والمزاح؟ فإنى معتذر إليك وتائب إلى الله من هذا الإثم العظيم.

قال عبد الرحمن وهو يقبل ختته: لا والله يا بنى ما شكت إلى نفيسة شيئاً، وما علمتك إلا براً كريماً وابن أخ بر كريم. ومنذ ذلك اليوم أنزل الله السكينة على قلب خالد، فتاب إلى أهله وابنتيه كأحسن ما يثوب الزوج الصالح والأب العطوف.

على أن للشيطان فى قلب كل إنسان مكانًا يصغر ويكبر ويتسع ويضيق بمقدار حظه من الخير ونصيبه من رضا الله وبره به، وبمقدار اجتهاده فى الدين، وحرصه على التقوى، وإيثاره للخير والمعروف. ولكن هذا المكان موجود دائمًا فى قلوب الناس يبتلون به فيما يأتون من الأمر وما يدعونه. وقد اجتهد خالد فى الدين ما وسعه الاجتهاد، وآثر الخير والمعروف ما استطاع، ولكن مكان الشيطان ما زال مستقرًا فى قلبه لأنه لا يزول إلا من قلوب الأنبياء والصديقين. والشيطان ماكر ماهر فى المكر يحسن الاستخفاء بمكره وغدره، ويبرع حين يلبس الحق بالباطل، وحين يزين الشر فى قلوب الناس، وحين يخدع الرجل عن نفسه وعن أحب الناس إليه وآثرهم عنده. وقد كان الشيطان ماكرًا ماهرًا فى سيرته مع خالد؛ فقد استخفى فى ثنية من ثنايا قلبه وعطف من أعطاف نفسه أسابيع وأشهرًا، لا يحدثه بقليل ولا كثير فيما بين سميحة أمها من الاختلاف، ولا يحدثه بقليل ولا كثير فيما بين جنانار وأمها من التشابه المروع، وإنما يستخفى زاوية من زوايا نفسه، حتى إذا أقل خالد على ابنته الصغرى يريد أن يلاعبها أو يداعبها أو يلثمها أو يشمها انسل حتى يدنو من الصبية، فلا تكاد الصبية تبتسم إلا غشى ابتسامتها البريئة الحلوة بتقلصه المنكر البغيض الذى يسميه ابتسامًا. ولا تكاد الصبية تقطب وجهها لما يقطب له الأطفال وجوههم إلا اتخذ الشيطان أبشع ما يؤذن له أن يتخذه من الصور وعرضه دون وجه الصبية، فتقع عليه عين خالد، وإذا لسانه يوشك أن يتلو الآية الكريمة المروعة: ﴿كَانَهُ رُؤُوسَ الشَّيَاطِينِ﴾. ولكنه يمسك لسانه فى جهد شديد، ويمسح رأس الصبية وهو يتلو آية الكرسي كأنه يحصن بها الطفلة من كل خوف، وهو إنما يحصن نفسه من هذا الروح المروع الذى أشاعه الشيطان فى قلبه. ولا يكاد الشيطان يسمع الحروف الأولى من هذه الآية حتى ينسل فرعًا مذعورًا. ولكن فرع الشيطان قصير الأجل، وحيلة الشيطان طويلة المدى؛ فهو لا ينسل إلا ربما يبلغ الصبية الكبرى "سميحة" ذات الحسن الرائع والمنظر الأنيق، فيدفعها إلى أبيها، فتندفع فرحة مريحة، وإذا خالد البائس بين أجمل وجه خلقه الله، وأقبح وجه خلقه الله، وإذا هو مضطر إلى أن يلقى نظرة إلى تلك، وإذا هو مضطر إلى أن يفكر فى امرأته فيلاحظها لحظة خاطفة ثم ينصرف مسرعًا وفرع إليه بعد أن يستعيز الله من الشيطان الرجيم. وكذلك كانت حياة خالد عذابًا متصلًا بين ابنتيه وزوجه، يدفعه إليهن الحب والبر والعطف، ويصرفه عنه الشيطان بما يتكرر من صور وما يزين فى قلبه من شر، حتى أصبح لا يجد الراحة ولا الأمن إذا خرج من داره وتحدث إلى أصدقائه وأترابه. وأى راحة وأى أمن! فقد كان الشيطان يألف أصدقاء خالد وأترابه. وما أكثر ما يألف الشيطان من الناس! وكان يطلق ألسنتهم بكثير من القول، فيه الإغراء

بالمنكر، وفيه الصرف عن المعروف، وفيه هذه الأحاديث التى يألفها الشباب فى القرى عما يأتون وما يدعون إذا خلوا إلى أهلهم، ثم فيه هذه الأحاديث التى تمتلئ بالأمانى الآثمة والأحلام التى نسجت من الخطايا نسجاً. فيه هذه الأحاديث التى يظهر فيها الخير والطاعة ويستتر فيها الإثم والفجور: أحاديث الاستكثار من الزوجات والتنقل بينهن إرضاء للشهوات والجامحة والغرائز التى ليس للعقل عليها سلطان، وحديث الطلاق واستبدال زوجة مكان أخرى للأسباب الهينة والأسباب ذات الخطر. كل هذه الأحاديث كان الشيطان يطلق بها أسنة الأصدقاء والأتراب الذين كان خالد يلقيهم إذا خرج من داره، فلا يكاد يسمع منها شيئاً حتى يذكر امرأته وصورتها المنكر، وإذا نفسه تنازعه إلى الطلاق، فيستحى منه ويرحم ابنتيه، وإذا نفسه تنازعه إلى الزواج فيستحى منه ويذكر حماءه فى القاهرة وأباه فى المدينة، ويرحم امرأته وابنتيه من هذه القسوة التى لم يعرض ما يدعو إليها. ويسأل نفسه عن مكان امرأته الوفية من زوجة تلك يمكن أن تطراً على داره، وعن مكان ابنتيه هاتين البريئتين من زوجة الطارئة وممن عسى أن ترزقه من بنين وبنات. ثم يسأل نفسه عن نفسه وكيف يكون بين هاتين الزوجين، وكيف ينصفهما من حبه وقلبه، وكيف يرضى الله عن عدله بينهما، والله قد طلب إلى المسلمين هذا العدل، وبين لهم أنه عسير. وقد كان خالد على ذلك كله معذباً فى حياته بهذه الأهوال التى يكبرها له الشيطان ويجسمها فى نفسه تجسيمياً، كما كان معذباً بشبابه القوى وفتوته الشائرة، وبهذا الشر الجديد الذى ابتلى به، فقد صرف عن زوجه صرفاً، لا يكاد يراها إلا تولى عنها أسفاً محزوناً. فإذا خلا إلى نفسه جلى الشيطان له أجمل وجهاً، وأحسنهن قواماً، وأشدهن للرجال فتنة، وما زال يغريه ويغريه حتى يهم بهذه الصور الرائعة التى تتراءى له، فإذا هم لم يجد إلا ظلالاً ووجد عندهما ندماً أليماً.

ولم يكن عبث الشيطان بنفيسة أقل من عبثه بخالد، ولكنه كان من نوع آخر، فلم يكن الشيطان يغريها بفتنة ولا يدعوها إلى إثم، وإنما كان يعرض عليها صورتها البشعة فى كل وجه توجه إليه طرفها، ثم يعرض عليها نساء حسناً رائعات الحسن ويلقى فى روعها أن زوجها يتمثلن ويفكر فيهن ويتمنهن، وأن أصدقاءه وأترابه والنساء من أسرته يغرونه على الزواج ويحرضونه على أن يدخل عليها فى دارها ضرة، ثم يصور لها حياة الضرائر وما يكون من هذا الحقد البغيض والتنافس المنكر فى أحط ما يتنافس فيه، وما يكون بينهم من الكيد والغدر، وما يدفعن إليه من الإثم والخزى. وكان الشيطان يتبع نفيسة حيثما وجهت من دارها، فلا تكاد تلقى زوجها حتى يصوره الشيطان لها منصرفاً عنها ضيقاً بها زاهداً فيها، فلا تكاد تسمع صوت زوجها حتى يخيل الشيطان إليها أن هذا الصوت يقطر بغضاً لها ونفوراً منها. وكان الشيطان مع ذلك يذكى فى نفسها غرائز الحب، فإذا هى لم تكلف قط بزوها كما تكلف به الآن، ولم تغرب فى التلطف له والرفق به كما ترغب فيهما الآن، ولم تحتج قط إلى حنان زوجها وعطفه كما

تحتاج إليهما الآن، وكل ذلك مصروف عنها أشد الصرف وأقساه، وكذلك أصبحت الحياة جحيماً بين الزوجين. ويروح خالد على أهله ذات ليلة، فإذا صعد فى السلم سمع نشيجاً مؤلماً، فيسرع الخطو، وإذا هو أمام امرأة قد نثرت شعرها، ومزقت ثوبها، وخمشت وجهها حتى أسالت منه الدم، وهى تضرب صدرها ضرباً عنيفاً، وتتحبب انتحاباً يفطر القلوب، فيقف خالد واجماً أول الأمر، ثم يرفق بامرأته، ولا يزال يسألها عن أمرها حتى تجيبه فى شهقتين: تمثلت لى الليلة امرأة زعمت أنها جنية البيت، وأنها تسكن فى حنايا السلم، زعمت لى أنك قد تزوجت اليوم أنك متزوج غداً. ثم تعود إلى شهيقها فتغرق فيه، وإلى وجهها وصدرها فتشبعهما لطمًا وصكًا، وخالد يضرب إحدى يديه بالأخرى ويقول: إنا لله وإنا إليه راجعون!!

ولم ينم خالد من ليلته، وإنما قام عند امرأته ذاكرًا لله تاليًا للقرآن، داعيًا مستعيذاً من الشيطان، واضعاً يده على رأس نفيسة، مؤمناً بأن هذه الآيات والأدعية التى كان ينطلق بها لسانه فى صوت مرتفع بعض الشيء فيه كثير من الإثمان وكثير من الخوف، لا تصدر عن فمه فتشيع فى الغرفة وتطرد الشياطين فحسب، ولكنها تصدر عن جميع جوارحه بعد أن تجرى مع دمه فى عروقه كلها كأنها الروح اللطيف الحار. وليس من شك فى أن طرفاً منها يصل إلى هذه الرأس المتقد المضطرب، ثم يجرى فى جسم نفيسة كله فيشيع فيه برد الراحة وحلاوة الأمن والهدوء.

والواقع أن نفيسة أقامت على ثورتها وانتحابها حيناً، ثم أخذت رعدتها تخف، ودموعها تجف، وشهقاتها تهدأ وتفصل بينها لحظات طوال أو قصار، حتى إذا مضت ساعات من الليل كانت نفيسة قد فقدت قوتها ونشاطها، ولبثت فى مكانها هاملة جامدة، ثم هوت إلى جنبها كأنها البناء المنهار. ولم يشك خالد فى أن روحاً من الله قد مسها فردها إلى الدعة والهدوء. ولكنه على ذلك لم يتركها، وإنما جلس منها غير بعيد، ومضى فى ذكره الله وتلاوته للقرآن، واستعاذته من الشيطان. وحسناً فعل؛ فلم يكذب يصيح الديك حين قارب الليل ثلثيه حتى هبت نفيسة مذعورة، ثم نهضت قائمة، وأخذ وصوتها يرتفع بالنشيج، وأخذت يداها تعملان فى وجهها وصدرها لطمًا وصكًا. هنالك وثب خالد كما وثبتن ثم أسرع إليها فأجلسها، وقام منها مقامه أول الليل، يده على رأسها، ولسانه ينطلق بالقرآن والدعاء. وبعد لآى ثابت إلى الهدوء، ولبث هو قائماً يذكر ويتلو، حتى سمع صوت المؤذن يرجع: "سبحان فالحق الإصباح". وقد أقام مكانه حتى رأى الشمس تسعى إلى الغرفة فى استحياء، ثم يزول عنها الحياء قليلاً وإذا هى تغمر الغرفة فى جرأة أشبه شيء بالوقاحة. كذلك كان يفكر خالد فى إشراق الشمس ودخولها إلى غرفته ذلك الصباح. ومع ذلك فما أحب شيئاً قط كما أحب شروق الشمس، ولا داعبت نفسه شيئاً قط كما داعبت هذا الضوء الضئيل الذى ينفذ من الأفق كأنه السهم، ثم لا يزال يمضى أمامه ويمتد من جميع أقطاره

حتى يوقظ الأرض والسماء جميعاً، ويملاً ما بينهما بهجة وجمالاً. ولكنه كان فى ذلك اليوم مثقل القلب والنفس يحزن يشبه الموت، ولولا فضل من إيمان وبقية من تقوى وهذا القرآن العذب الذى كان يرتله ترتيلاً لثارت نفسه ولانتهت به الثورة إلى جموح يخرجها عن طوره ويدفعه إلى ما لا صلاح له من الأمور. وما الذى جنى من الذنب وما الذى اقتترف من الإثم حتى يمتحن فى نفسه وأهله وعمله إلى هذا الحد؟! إنه لم يطلب إلى أحد أن يزوجه، ولم يفكر فى الزواج، ولم يختار زوجه حين دعى إلى أن يتزوج؛ وإنما تتابعت الأمور عليه كأنها الصواعق يقفو بعضها إثر بعض، وإذا هو فى القاهرة، وإذا هو زوج، وإذا هو بعد ذلك أب مرتين، وإذا كل ذلك لا يذيقه إلا سروراً قليلاً وحزناً كثيراً. ولكن قضاء الله لا مرد له، وحمة الله لا تأويل لها، والمؤمن حقاً هو الذى يذعن للقضاء ويصبر على المحنة، ولا يسأل الله عما يفعل فهذا كفر به وشك فيه، ولا يسأل الله رد القضاء فقضاء الله لا يرد، وإنما يسأله اللطف فيه، فالله لطيف بعباده، وقد قال "وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ". وخالد يدعوه ويدعوه، لا يفتر لسانه عن ترديد هذين الدعاءين اللذين تجرى بهما أسنة الشيوخ فى الريف: "اللهم الطف بنا فيما جرت به المقادير. اللهم إنا لا نسألك رد القضاء ولكن نسألك اللطف فيه". وقد رأى امرأته آخر الأمر هادئة مطمئنة تبسم لضوء الشمس، لكنها ساكتة لا تتطرق بحرف، ساكتة لا تأتى حركة. فلما سألتها عن حالها لم تحبه كأنها لم تسمعه. فأعاد عليها السؤال مرة ومرة، ولكنه لم يسمع لسؤال جواباً. ولم ير أمامه إلا تمثالاً بشعاً على وجهه ابتسامة بشعة تزيد قبلاً وتشويهاً، وقد امتدت عيناه كأنما تنظران إلى شيء بعيد لا يرى، وهو كذلك هامد جامد كأن ليس له حظ من حياة. هنالك نسل خالد من غرفته فى رفق وأسر إلى أبيه، فإذا هو جالس فى مصلاه من غرفة أم خالد يسبح ويحمد ويكبر، وأمامه كأسان من القهوة وقطعة من الخبز الجاف وقليل من الملح، لم يمدد إلى شيء من ذلك يده بعد لأنه لم يزل فى صلاته ودعائه. فلما رأى ابنه مقبلاً ولم يكن تعود أن يراه فى مثل هذه الساعة من النهار ولا فى مثل هذا المكان من الدار، رفع صوته بما بقى من فمه من الدعاء والتسبيح: الله أكبر كبيراً، والحمد لله كثيراً، وسبحان الله وتعالى بكرة وأصيلاً، ثم تحول إلى ابنه وهو يقول: أصبح بخير يا ابني! ما وراءك؟ قال الفتى فى صوت منخفض: أصبح بخير يا أبت! إن ورائي إلا خير، فقد ألم بنفسيه بعض المرض. قال على: وما ذاك؟ قال خالد: أحسب أن طائفاً من الشيطان قد مسها، ثم قص على أبيه الخبر فى جمل قصار والشيخ يصغى إليه فى شيء من الوجوم. فلما فرغ الفتى من حديثه لم يزد الشيخ على أن قال: ألهمك الله الصبر يا بنى وغفر لى ورحم أمك! فقد أنبأتى يوم زوجك بأننى لا أزيد على أن أغرس فى دارنا شجرة البؤس. ثم أراد الشيخ أن يكون شجاعاً فهم أن يمد يده إلى قطعة الخبز ولكنها لم تمتد. فهم أن يمدوها إلى كأس القهوة ولكنها لم تمتد، وإذا عيناه تغرورقان بالدمع، وإذا هو يقول فى صوت منقطع فى

حلقة: "اللهم إنا لا نسألك رد القضاء، ولكن نسألك اللطف فيه". وابنه يجثو بين يديه خاشعاً، فقبل رأسه صامتاً، ثم يتحول عنه فيقدم إليه إحدى كأسى القهوة فيأخذها منه، ويتناول هو الكأس الأخرى، فيشربان كأنهما الصديقان. ولم يكن خالد قد شرب القهوة بمحضر أبيه قبل اليوم. وقضت الدار نهراً غريباً؛ رجلان يختلفان إلى غرفة نفيسة، كلاهما يتلو القرآن ويجأر بالدعاء، وعمات خالد ونساء أبيه قد ملأن الدار يطوفن بالبخور مهمهمات متممات، ومنهن من تدعو الله ومنهن من تدعو الشيطان. وقد اجترأت إحداهن فذكرت حفل الزار. ولكن علياً ثار لذلك وزجر النساء زجراً عنيفاً، وأقسم لتأوين كل واحدة منهن إلى غرفتها. وليقطعن لغطهن الثقيل البغيض. ثم أقام يخالف مع ابنه. إلى غرفة نفيسة، حتى إذا صليت العصر خرج من الدار يقصد قصر الشيخ. وقد انتهى إليه، فراه في نفر من أصحابه يسمع منهم ويقول لهم. فلما رآه الشيخ مقبلاً من بعيد لمححة لمححة خاطفة ثم قال في صوت هادئ: إن لعل اليوم لشأناً. وقد عرف القوم أن قد كان لعل شأن: فقد دنا من الشيخ وألقى في أذنه بعض الهمس، وإذا الشيخ ينهض ويأخذ بيد علي، وإذا هما يسعيان إلى باب يفتح لهما في صدر المجلس ثم يغلق من دونهما. وقد قص علي لى شيخه خبر نفيسة، فاستمع له الشيخ، حتى إذا فرغ من حديث بسط الشيخ يديه ورفع رأسه ولم يزد علي أن قال: "اللهم إنا لا نسألك رد القضاء ولكن نسألك اللطف فيه". ثم أطرق وجعل فمه يهمهم وحيات سبحته الغلاظ تساقط بين أصابعه، حتى إذا أتم دوره السبحة رفع رأسه إلى علي وقال: وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب؛ قم يا بنى فأنبئ عبد الرحمن بمرض ابنته، فما ينبغى أن يجهله، وما أشك في أنه سيقبل مسرعاً. ثم ابتسم وقال: وسيتيح لنا ذلك أن نراه فقد بعد عهدنا به، ثم نهض ونهض معه علي وفتح لهما الباب وأغلق من دونهما، وإذا الشيخ بين أصحابه قد جلس إليهم يسمع منهم ويقول لهم، وإلى علي منصرف إلى دار ونفسه تتطلع حشرات؛ فقد كان يظن أن الشيخ سيصحبه إلى الدار، وسيدخل على نفيسة ويدعو لها بالشفاء. ولو قد فعل لردت نفيسة إلى خير ما كانت عليه من الصحة والعافية.

أقبل عبد الرحمن بعد أيام وفي نفسه قلق لم يبلغ الجزع. فلم يكن على قد أنباء بأكثر من أن ابنته مريضة، ومن أن من الخير أن يراها وأن تراها أمها. وكان عبد الرحمن رجلاً جلدًا صبورًا عظيم الاحتمال، قد امتحنته الأيام في ابنيه جميعًا، فلم يتخلع قلبه، ولم يخرج من وقاره المألوف، وإنما بلا مرارة الحزن إلى أقصاها واصطلى نار الألم إلى أشدها، وهو ثابت لا يضطرب، وقور لا تزدهيه الخطوب، يرحمه الناس ولكنهم يعجبون به ويعجبون منه. وهو ماض في حياته، محتمل لأثقالها، ثابت لعواصفها، يشهد الصلوات الخمس في المسجد، ويتلو ورد السحر في آخر الليل، ويختلف إلى متجره وجه النهار وآخره، فيعمل ويرى أعوانه يعملون، قليل الكلام كثير الصمت، لا يغفل قلبه عن ذكر الله، ولا تنسى نفسه أن تستخرج من آلامه مواعظ وعبرًا. وهو يرحم امرأته ويشفق عليها، ويحيطها بشيء من عطف يوشك أن يكون قسوة؛ فهو لا يحب البكاء كما أنه لم يكن يحب الفرح؛ وإنما يريد لامرأته أن تكون مثله هادئة، رزينة كاظمة للغیظ، صابرة على الخطاب مسلمة أمرها إلى الله، قابلة قضاءه في رضا، منتظرة قضاءه في ثقة. فلما جاءه النبأ بأن ابنته مريضة، وبأن الخير أن يراها وأن تراها أمها، لم يظهر امرأته على شيء، وإنما زعم لها أنه مسافر إلى الأقاليم في بعض ما كان يسافر له من التجارة. فلما وصل إلى المدينة ولقى عليًا وخالدًا قال لهما في صوته الهادئ وعلى ثغره ابتسامته المطمئنة: لم أخبر أم صالح بشيء ولم أكفلها مشقة السفر، فإن تكن نفيسة قادرة على الرحلة على القاهرة فالخير أن تمرض هناك وأن ترى أمها في دارها. وإن تكن غير قادرة على الرحلة مرضناها هنا حتى يكون لها حظ من برء فنتم شفاءها في القاهرة. كذلك قدرت والله تقديره، وهو يقضى فينا بما يشاء. ولم يرد مع ذلك أن يستريح ولا أن يشرب القهوة، وإنما صمم في هدوء على أن يرى ابنته قبل كل شيء. قال علي: سترها ولكن... قال عبد الرحمن: ولكن ماذا؟ أتراكما خدعتاني وأنبأتاني بمرضها بعد أن بلغ الكتاب أجله؟ قال علي: لا؛ ولكن مرضها غريب. قال عبد الرحمن: مرضها غريب! لقد كانت غريبة الأطوار في طفولتها وصباها، أفترها قد جنت؟ فأما علي فلم يجب. وأما خالد فأجهش بالبكاء. وأما عبد الرحمن فرفع يده إلى جبهته وظل كذلك حينًا، تمسح إحدى يديه بالأخرى وهو يقول: إنا لله وإنا إليه راجعون، ثم أقام مكانه لم يظهر ميلاً إلى لقاء ابنته، وإنما قال لخالد: اطلب لنا القهوة يا بني. وأغرق بعد ذلك في صمته. حتى إذا جاءت القهوة وشرب منها كأسين قال مبتسمًا: والصبيتان ما خطبهما؟ قال علي: هما بخير روعتا شيئاً أول الأمر، ثم حيل بينهما وبين لقاء أمهما. قال عبد الرحمن فأستطيع أن أراها؟ قال خالد: نعم! ثم غاب ساعة وعاد معه ابنتان إحداها آية في الحسن والأخرى آية في القبح. فلما رآهما عبد الرحمن ضمهما وقبلهما ومسح على رأسهما، ثم قال لخالد: ردهما إلى لعبهما فقد كانتا تلعبان من غير

شك. ولم يكد خالد ينصرف بالصبيتين حتى انحدرت من عيني عبد الرحمن دمعتان أسرع إلى تجفيفهما وهو يقول: "اللهم عفوك ومغفرتك ورضاك؛ اللهم إنا لا نسألك رد القضاء ولكن نسألك اللطف فيه". ثم قال: ألم تر يا علي أني قد أحسنت حين لم أزعج أم صالح و لم أجشمها الفر، فحسبها ما تنتظر من هول. قال عليك هون عليك أبا صالح؛ وإنما هي محنة تزول. قال عبد الرحمن: أرجو ذلك إن شاء الله. ولكن مر فليهيأ للسفر إذا كان الغد، أما اليوم فإنني أريد أن أزور الشيخ وأن أحدث به عهدًا. ثم سكت قليلاً والتفت باسمًا إلى خالد وهو يقول: "أتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا". وأقبل القوم على غداثهم وحديثهم ثم على صلاتهم ودعائهم كأن لم يلم بهم خطب. فلما اصفر وجه النهار سعوا إلى شيخهم، فألفوه بين أصحابه يعظهم ويقرأ عليهم بعض الحديث، فاستمعوا واستمعوا، وشهدوا معه صلاة العشاءين وما بينهما من دعاء، وأقاموا معه حلقة الذكر كما كانوا يصنعون من قبل، حتى إذا تفرقت الحلقة وأخذ الناس ينصرفون، تتأهل عبد الرحمن فلم ينصرف ولم يظهر ميلاً إلى الانصراف، ورأى الشيخ ذلك منه فأشار إليه أن أقم، وأشار إلى صاحبيه أن أقيما. حتى إذا خلا لهم وجه الشيخ هم عبد الرحمن أن يتكلم ولكن الشيخ قال: ما رأيت رجلاً مثلك يا عبد الرحمن؛ إن إيمانك لحسن، وإن دينك لمتين، وإن أجرك عند الله لعظيم. قال عبد الرحمن: سمع الله لك يا مولاي؛ إني قد حرصت على أن أظفر منك بهذه الساعة مع صاحبي هذين لأشهدك على وعليهما. قال الشيخ: وما ذاك؟ قال عبد الرحمن: إني سأرتحل يا بنتي إذا كان الغد. قال علي وخالد في صوت واحد: وسنرتحل معك. قال الشيخ: دعاه يقل. ومضى عبد الرحمن في حديثه فقال: إن ابنتي لم تعد تصلح زوجاً لخالد، ولكني لا أحب الطلاق؛ لأن الله لا يحب الطلاق. وهم خالد أن يتكلم، فأشار الشيخ إليه: أن صه. قال عبد الرحمن: فأريد أن أشهدك على أني سأكفل ابنتي والصبيتين ما حييت، فإذا مت فإنني أوصي بهن وبامراتي ومالي كله إلى خالد، يقوم في ذلك كله بأمر الله وبما ينبغي من البر بالزوج و الولد والصهر وذوى المودة والقربى. ولم يبلغ عبد الرحمن ذلك من قوله حتى كان على وابنه ينتحبان. قال الشيخ: ما رأيت كالليلة قوة، وما رأيت كالليلة ضعفًا، ثم نظر إلى على وابنه وهو يقول: أما تستحيان؛ ثم بسط يده إلى عبد الرحمن وقال: ابسط يدك أبابيك على ما تقول وأنا وكيل خالد، وتصافح الرجلان. ثم أقبل الثلاثة على الشيخ فقبلوا يده، ثم صفق الشيخ تصفيقاً خفيفاً، فلما أقبل الخادم قال الشيخ: أرسل إلينا قهوة، وقل للشيخ مدكور يغني لنا:

سائق الأظعان يطوى البيد طي

وما هي إلا لحظة حتى أقبلت القهوة المجمرة في شيء من نجور، وارتفع صوت الشيخ مدكور في هدوء الليل يغني في شعر ابن الفارض الجميل والقوم يشربون القهوة حساً خفيفاً، والشيخ يضطرب في مجلسه اضطراباً خفيفاً ويقول في صوت همس: الله! الله! ثم ينقطع الصوت

وينهض الشيخ فيصل ركعتين، ويصلي كل من الثلاثة مثله ركعتين، فإذا أتموا صلاتهم قال الشيخ للجماعة: انصرفوا راشدين، نراك قبل سفرك يا عبد الرحمن؟ قال عبد الرحمن: لا يا مولاي؛ إنه سفر يحسن الاستعجال به.

عاد على وابنه من القاهرة بعد أسابيع وفي نفس كل منهما بقية من حزن عميق لم تمحها الأيام، ولكن نسجت عليها حجاباً أخذ يزداد صفاقة كثافة من يوم إلى يوم، حتى أنسى على أو كاد ينسى نفيسة، لولا أنه كان يرى خالداً ويذكر أنه يعيش عيشة الفتى الأعزب، فيرثى له ويفكر في مستقبل أمره تفكيراً قصيراً، لولا أن الشيطان كان يخيّل إليه بين حين وآخر أن ثروة عبد الرحمن صائرة إليه يوماً ما، فمضاعفة ثروته، ومصلحة من أمره ما يحتاج إلى الإصلاح؛ فقد كثر نساؤه، وأخذ ولده يكثرون، وأخذت النفقة تزداد وتثقل أعباؤها، وأخذت الحاجات تكثر وتتوعد وتتعد. تجارة على رابحة من غير شك، ولكن ربحها يذو في هذا لأسرة الكبيرة كما يذوب الملح في الماء.

وإن العام ليتم دورته، ويبحث على عما بقى له من ربحه فلا يجد شيئاً. ولعله أن يجد رأس المال وقد تحيف منه قليلاً أو كثيراً، فيضيق بذلك يوماً أو يومين، ويغتم له ليلة أو ليلتين، ولكنه لا يلبث أن ينصرف عن ضيقه وغمه إلى حياته هذه المطردة المضطربة: تجارة أول النهار، ولغو آخره، وراحة بين ذلك، وسهر عند الشيخ إذا كان الليل، ثم العودة إلى داره ليقتضى بقية الليل عند هذه أو تلك من نساءه، يسمع منها أبغض ما يسمع الرجل من امرأته: شكاه من هذه، ونعياً على تلك، وعيباً للثالثة وثناء على نفسها، ثم إلحاحاً في التسوية بينها وبين ضرائرها؛ فقد أهدى إلى هذه ما لم يهد إليها مثله. وزعمت تلك أنه ترك لها من النقد كذا وكذا درهماً على حين أن يبيت عندها ولا يترك لها شيئاً، وإنها تلتبس المليقات تشتري بها الحاوى لصبيها البائس فلا تجدها، فيظل ابنها محروماً ينظر إلى أبناء الضرائر وهم فرحون بما في أيديهم من الحلوى وما في جيوبهم من ألوان النقل. وعلى هذا النحو تنغص عليه ليلته حتى ينتظر الصباح أشد ما يكون إليه شوقاً. فإذا سمع صوت المؤذن أسرع إلى وضوئه وصلاته، يظن أن التقوى هي التي تدفعه إليهما، وما كان يدفعه إليهما إلا الهرب من هذه الحياة البغيضة، ومن هذا الليل الطويل الثقيل. ولم يكن على يجد الراحة والنعيم إلا في ليلة أم خالد حين يخلو إلى نفسه وإلى ذكرى زوجه الكريمة، فيمتلئ قلبه حباً وحناناً، ثم يسرع إلى ذكر الله وتلاوة القرآن ليهدى إلى هذه الزوج الصالحة شيئاً من ثواب الآخرة بعد أن لم يستطع أن يهدى إليها شيئاً من نعيم الدنيا. رحم الله أم خالد؛ لقد كانت برة به عطوفاً عليه، لم تخالف عن أمره قط، ولم تسؤه في نفسه قط، لم تؤذه بقول ولا عمل، لم ير منها إلا خيراً منذ لقيها إلى أن فارقها، كانت مباركة لم يحس في أيامها ضيقاً ولا ضنكاً، إنما كان المال يتدفق في متجره، والخير يتدفق في داره. وكانت حياته بين حبها وله ورضا الشيخ عنه ونمو ابنه خالد مشرقاً باسمًا فرحاً مرحاً، نعيماً متصللاً. أين هو من هذا النعيم؛ أيجده عند زينب هذه التي تقدمت بها السن حتى أخذ وجهها يكلح وتظهر فيه التجاعيد،

وهى مع ذلك تتجمل وتتدلل وتتكلف ما يتكلفه النساء الحسان؛ وما الذى يعجبه من زينب هذه، وما الذى يكرهه على أن يمسكها فى داره،!! لقد تزوجها فى آخر شبابها، فلم ترزقه ولدًا، ولم ير عندها خيرًا، بل لم ير عندها إلا سوء الخلق، وإلا هذه الغيرة الطارئة التى أخلتها فى قلب زوجها الآخرين. لقد كان مستمتعًا بشيء من هدوء قبل أن يتخذ هذه الزوجة الثالثة. وما له لا يكتفى بزوجين اثنتين! رحم الله تلك الأيام التى كان يكتفى فيها بأمر خالد. ولكن أم خالد! وكيف يقاس إليها النساء؛ ثم يصبح ودق استقرار رأيه على أن يفارق زينب، فهو يلتمس لذلك الأسباب والعلل. وأى شيء أيسر من ذلك؛ يكفى أن تلقاه متجهمة تحسب تجهمها دلالة، متكررة تحسب تنكرها تيهًا، يكفى أن يدعوها فتبطن فى الجواب، وإذا هو نائر فائر، يلقي فى وجهها كلمة الطلاق، ثم يفر من بين يديها مسرعًا فيتنفس ملء رئتيه، ويأوى إلى غرفة أم خالد على مصلاه يستغفر الله ويتلو القرآن.

كذلك كانت حياة على زواج وطلاق، وطلاق وزواج، واحتمال لما يقتضيه ذلك من نفقات، واحتمال لما تقتضيه كثرة الولد من نفقات أيضًا، وإهمال هؤلاء الولد الذين يكثر من يوم إلى يوم. وإهمال مصدره كثرتهم من جهة، وتنافس أمهاتهم من جهة أخرى، وانصرافه إلى تجارته ولغو وعبادته من جهة ثالثة. وقد أهمل تربية خالد حين كان خالد وجيدًا، حتى كاد يفسد ويرجعه الانجذاب لولا لطف الله وكرامة الشيخ. وهنا يستعرض أمر خالد وزواجه وكل هذه المأساة، فيحزن لها شيئًا، ثم يذكر عبد الرحمن وثورته فتمر على ثغره ابتسامة ينكرها ولكنه يستعذبها على كل حال. ومما زاد حياة على تعقدًا وارتباكًا وأكثر فيها الهم والحزن أن تجارته أخذت تقترب شيئًا فشيئًا على مر الأشهر والأعوام. لم يفتن لأسباب ذلك أول الأمر، وإنما ضاق به وشكا منه. وحاول أن يطب له فلم يفلح. ثم أصبح ذات يوم وقد كشف عنه الغطاء وإذا هو يرى نكرًا من الأمر يملأ قلبه خوفًا، ثم لا يلبث أن يملأ قلبه يأسًا. هذه المتاجر الجديدة التى أخذت تنشأ فى المدينة على غفلة من أهلها لا يدرون كيف جاءت إليهم، ولا كيف استقرت فيه، وإنما هو بناء يقام لا يعرف أهل المدينة من يقيمه ولا لمن يقام، ثم ينظرون فإذا عمارة فخمة ضخمة قد ارتفعت شاهقة فى السماء ممتدة فى الفضاء، وقد أقبل عليها قوم غرباء جاءوا من القاهرة فملئوها بضائع وعروضًا، وأحاطوها بألوان من الزينة والبهجة تدعو الناس وتغريهم بها، وإذا هم ينظرون ثم يققون ثم يدخلون ويخرجون بعد ذلك، وقد تركوا ما كان معهم من نقد، وحملوا من السلع والعروض أشياء حزمت لهم حزمًا حسنًا ليس مألوفًا فى هذه المتاجر القديمة التى توارثها الأبناء عن الآباء، وأغرب من هذا أن هذه المتاجر التى أخرجها الشيطان من الأرض لا تقتصر على لون بعينه من البضائع أو ضرب بعينه من السلع، وإنما هى تباع كل شيء. متجر واحد يعدل جميع متاجر المدينة. أى غرابة فى أن يفتن الناس بهذا الجديد ويتهالكوا عليه ينفقون

فيه أموالهم ويقتضون منه حاجاتهم؛ فأما على وأصحابه ومتاجرهم هذه القديمة القذرة المهملة النائمة، فعليهم وعليها العفاء.

كذلك أحسن ذات يوم أنه لن يستطيع أن يثبت لهذه الشياطين الجديدة التي هبطت على المدينة لتفقر أغنياءها وتذل أعزائها، وتأخذ ما فيها من مال فتحمله إلى شياطين أخرى تقيم في القاهرة أو في مدينة أخرى غير القاهرة. وقد تحدث على بذلك إلى بعض أصحابه التجار، فإذا هم يرون مثل ما يرى، ويجدون مثل ما يجد، ثم لا يملوكن، كما أنه لا يملك، إلا أن يضربوا يداً بيد ويقولوا: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، حسبنا الله ونعم الوكيل. ثم سعوا إلى شيخهم، وتحدثوا إليه في ذلك، فإذا هو يرى مثل ما يرون، ويجد مثل ما يجدون، ويقول كما كانوا يقولون: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. حسبنا الله ونعم الوكيل، ثم يحدثهم عن أشرار الساعة، ويذكرهم بأيام الله، ويعظمهم فيبغض إليهم الغنى ويحبب إليهم الفقر، ويؤكد لهم أن أكثر أهل الجنة من الفقراء، وأن أكثر أهل النار من الأغنياء الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم.

وكذلك عملت حياة على في ماله وتجارته، وعملت في ماله وتجارته هذه الشياطين التي انقضت على المدينة كأنها الجراد، وإذا إحساسه بالضيق يكثر ويشتد، وإذا هو يقصر مع بعض عملائه في القاهرة فلا يؤدي إليهم حقوقهم في إبانها، وإذا هو مضطر إلى أن يتخفف من بعض ما اختزن من العروض ببيعها بثمن بخس ليؤدي بعض ما عليه من دين. وقد خطر له ذات ليلة وهو قاصد إلى غرفة أم خالد أن يهبط إلى القاهرة ليرى عبد الرحمن، فيعلم علمه، ويسأل عن نفيسة وابنتيها، فقد أهملهن منذ زمن طويل. ومن يدرى، لعله أن يجروا فيلتمس عند صهره شيئاً من معونة. فلما انتهى إلى غرفة أم خالد جلس على مصلاه، فدعا واستغفر وصلى وتلا القرآن واستخار الله. ولم يهمل بعد أن صلى الصبح أن يقرأ سورة "يس" سبع مرات يعقبها في كل مرة بدعائها المعروف. فلما فرغ من ذلك غفا غفوة ثم استفاق، وإذا محمود يحمل إليه كسرة من خبز جاف، وشيئاً من ملح، وكأسين من قهوة، فطعم وشرب وحمد الله، ونهض وهو مستيقن أن الله قد عزم له على الرشد، ومزمع أن يسافر إذا كان الغد. وقد أنفق نهاره في الاستعداد لهذا السفر؛ فلم يكن بد من أن يحمل إلى نفيسة وابنتيها ما يسرهن. والله يعلم كيف احتال في ذلك وجد في الحيلة، ولكنه سافر من الغد كما تعود أن يسافر موفوراً كثير المتاع، وقد استخلف ابنه خالداً على داره ومتجره. فلما وصل إلى القاهرة وانتهى إلى دار عبد الرحمن لم ينكر شيئاً أول الأمر، فقد لقيه صديقه الشيخ باسمًا وقوراً مرحباً. ولقيته أم نفيسة باسمه عن ثغر محطم في وجه مربد قد عبثت به السنون. ولقيته نفيسة هادئة مطمئنة راضية. فأما الصبيتان فقد نمتا نمواً حسناً، فازدادت إحداها جمالاً وازدادت الأخرى قبحاً. ولكن علياً لم ينفق مع صديقه الشيخ يوماً وبعض

يوم حتى أنكر كل شيء، وإذا هو يلعن الأيام في القاهرة كما كان يلعنّها في المدينة. فقد تعرضت تجارة صاحبه في العاصمة لمثل ما تعرضت له تجارته في الإقليم؛ لا لأن صاحبه استكثر من النساء والولد فكثرت نفقته وثقلت أعباؤه؛ فقد كان عبد الرحمن صاحب نسل وقناعة وزهد في الدنيا. بل لأن القاهرة امتلأت بهذه الشياطين التي أقبلت على مصر تغزوها منذ أعوام فأفسدت فيها كل شيء.

قال عبد الرحمن: ولست أدري ما الذي سلط علينا هذه الشياطين فقد كنا آمنين وادعين موفورين، ثم أصبحنا ذات يوم وإذا الشر يأخذنا من جميع أقطارنا، شياطين يأتوننا من يونان، وشياطين يأتوننا من إيطاليا، وشياطين يأتوننا من فرنسا، وشياطين يأتوننا من بلاد الإنجليز. صدقتي يا أبا خالد إن الله قد غضب علينا. وقد بحثت كثيرا عن أسباب هذه الغضب. فالله لا يغضب على الناس لغير سبب، وإنما هو قد عودهم أن يحسن إليهم تفضلاً منه، وألا يغضب عليهم حتى يستوجبوا غضبه بمنكر يأتونه، أو ذنب يقتربونه، أو إثم يتورطون فيه. وقد سألت الشيخ في الأزهر والأولياء الصالحين الذين يعكفون في المساجد ويلوذون بمشاهد أهل البيت، فلم أجد عند أحد منهم شيئاً. ولكني غفوت ذات ليلة بعد أن صليت العشاء، فما راعني إلا شيخنا وهو يبسم لي ساخراً، ثم يدنو مني فيمسح على رأسي ويثلو هذه الآية الكريمة: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيَّ الْقَوْلُ فَمَدَدْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾. ثم ينأى عني قليلاً وهو يقول: اتبعني أبا صالح فإن سافر بنفسى ودينى من هذه القرية الظالم أهلها. وقد أفقت مذعوراً، ولم أستطع منذ تلك الليلة أن أقنع نفسى بأنى لم أر إلا حلماً، وإنما استقر في قلبي أن الشيخ منتقل إلى رضوان الله، وأنى لن ألبث بعده إلا قليلاً. ولقد أقبلت أبا خالد وأنا أحدث نفسى بالسفر لأزورك وأحدث عهداً بالشيخ. فمن يدري! لعله الوداع.

قال على وصوته يرتجف: هون عليك، فإنك لم تر إلا حلماً، وقد تركت الشيخ على أحسن ما عهدته قوة ونشاطاً، وقد حملني تحية إليك ودعاء لك. ولكنه دعاني حين انصرف عنه بعد وداعه، فأسر إلى أنه هابط إلى القاهرة؛ فقد طال عهد بأهل البيت، ثم قال في ابتسامة ما رأيت قط أعذب منها، لقد كانت شفتاه كأنما تتفرجان عن نور - قال: أبلغ عبد الرحمن أنا سنكون ضيقاً.

هنالك لم يملك عبد الرحمن نفسه أن قال بأعلى صوته: الله أكبر! الشيخ ضيفي! ثم أهوى إلى صديقه فقبل رأسه وهو يقول وفي عينه دمعان تترقرقان: ويحك أبا خالد! لم أخرت على هذا النبأ السعيد!؟

ومهما يكن من شيء فقد سافر على إلى القاهرة وفي قلبه شيء من حزن وشيء من أمل، وعاد إلى المدينة وفي قلبه كثير من الحزن وكثير من اليأس، إلا من روح الله. ولكنه قال لصديقه وهو يودعه: سأعود إليك بعد حين؛ فما ينبغي أن أتخلف عن مصاحبة الشيخ، ولا بد من أن نزور معه أهل البيت.

أما خالد فقد كدنا نشغل عنه بحديث أبيه. وليس فى هذا شيء من بدع؛ فإنه كان يعيش فى أيام لم تكن حياة الأبناء فيها شيئاً ما دام آباؤهم ناهضين بما كان ينهض به الآباء من الأمر فى ذلك الوقت. فهم كانوا كل شيء، يصدر عنهم ما يدبر شئون الأسرة من أمر، وينتهى إليهم ما يعرض للأسرة من خطب، وما أبناؤهم إلا طلال لهم، بل ظلال ناقصة تصور ما كان آباؤهم يريدون لهم أن يكونوا. إنما كان الأبناء يستكملون شخصيتهم وينهضون بأمرهم كله حين كان آباؤهم يفارقون هذه الأرض أو يضطربهم المرض والكبر إلى أن يلزموا ببيتهم عابدين أو فارغين، لا يأتون شيئاً ولا يدعون شيئاً، لأنهم لا يقدرّون على شيء وكان على فى ذلك الوقت مالكا لأمره كله، لم يعرف قط نفسه قويا كما كان فى ذلك الوقت، ولم يستجمع قط قواه العاقلة والعاملة كما استجمعهما فى تلك الأيام. ولذلك أسرف على نفسه وعلى أسرته فى كل ما كان يأتى ويدع: إضاعة للتجارة، وإتلاف للمال، وإسراف مع ذلك فى الزواج والطلاق، واستكثار مع ذلك من البنين والبنات، حتى كان حديث الناس فى المدينة وفى بعض القرى المجاورة، وحتى تحدث إليه أصحابه فى ذلك، فكان يقول لهم ما ذكرناه آنفاً من أنه إنما يستوفى ما أباح الله له من الحق حين أذن للمسلمين أن يتزوجوا مثنى وثلاث ورباع. وكان يقول لهم فى شيء من الغلظة والاستهزاء: ما تتقمن منى! من استطاع منكم أن يصنع صنعي فليفعل. ألسنا قد أمرنا بالزواج بأن نستكثر من النسل ما وسعنا ذلك؛ لأن نبينا ﷺ مباه بنا الأمم يوم القيامة؟ فهل تعيرون على أن أكون سبباً من أسباب امتياز النبى بأمرته على غيرها من الأمم يوم القيامة! وكان أولو الجراءة من أصدقائه يذكرون له كثرة النفقة وثقل العبء، فيسخر منهم وقد يتجاوز السخرة إلى التأنيب، ويقول لهم: ما رأيت قوماً مثلكم يشكون فى قدرة الله وينكرون فضله على الناس؛ إن الله هو الذى يرزقنا الولد. وقد ينبغى أن تعلموا، إن كنتم لا تعلمون، أن الله لا يخلق فماً إلا أطعمه، ولا يبرأ نَسمة إلا كفل لها رزقها. وقد نهينا عن قتل الولد مخافة الإملاق. ولست أفرق بين الولد مخافة الإملاق وتجنبه مخافة الإملاق، كل ذلك يرجع إلى شيء واحد هو ضعف الثقة بالله، وأعوذ بالله أن تضعف ثقتي به أو يحل فى قلبى اليأس من فضله.

وكذلك كان يمضى فى طريقه هذه، لا يفكر فى عاقبة، ولا يحفل بموعظة، ولا يسمع لنصيحة، وإنما هو مندفع فى حياته واقتضاء لذاته المباحة، كما يندفع السيل إلى الوجه الذى دفع إليه. فلا غرابة فى أن تشغلنا حياته هذه عن حياة ابنه خالد، وقد كانت ضئيلة نحيلة فى ظل هذه الحياة الضخمة العريضة التى تندفع أمامها لا تقف عند شيء ولا تلوى على شيء. وقد كان خالد مع ذلك حين عاد من القاهرة بعد أن رد امرأته وابنتيه إلى حمية مقسم النفس بين نوعين من الشعور؛ فقد كان فى نفسه شعور بحزن مقيم مقعد حاول هو أن يفهمه فلم يستطع، ولكن فهمه

مع ذلك يسير. كان حزينًا أيسر الحزن لفراق امرأته التي عاشته أعوامًا ورزقته ابنتين، ولم تره في سيرتها معه إلا خيرًا. وكان حزينًا لأنه كان ينتظر لنفسه حياة غير هذه الحياة وحظًا غير هذا الحظ: كان يرجو أن يتيح الله له زوجة صالحة يحبها ويسكن إليها ويرى فيها متعة عينه وقلبه وأم ولده وربة بيته وصاحبته، منذ بدأ هذه الطريق إلى أن ينتهى منها. ولكن الله لم يتح له هذه الزوج. وقد رضى مع ذلك بما قسم الله له، ورآه نعمة وفضلاً. ولكن الله أبى أن يتم عليه هذه النعمة وأن يكمل له هذا الفضل، فكشف له الغطاء عن قبح امرأته. وامتحنه بهذا القبح حينًا، فكاد يخفق فى الامتحان. ولكنه حاول أن يثبت له، وكان يخرج من المحنة ظافرًا لولا أن الله قد ابتلاه بمحنة أخرى، فأعزى بامرأته جنية البيت، تلك التى تسكن حنايا السلم والتى جعلت تتراءى لها متى خلت إلى نفسها فتعرها وتضلها وتلقى فى روعها الأباطيل، حتى أفسدت عليها أمرها، وسلبتها ما كان لها من عقل، وإذا هو مضطر - بعد أن ردها إلى أبيها - إلى هذه الحياة الفارغة المؤلمة، حياة الوحدة، فقد كان على كل حال يأنس إلى امرأته فيرى فى عشرتها راحة وروحًا وقد كان ينعم بطفولة ابنتيه، ويرى فى ابتسامهما أملاً ونعيمًا، وإذا هو قد حرم هذا كله ورد إلى وحدته الأولى. بل أين وحدته الآن من وحدته قبل أن يتزوج، فقد كان بين أم تراه وتحنو عليه، وبين أب يحبه ويؤثره بالكرامة. فأما الآن فهو غريب فى دار أبيه بين هؤلاء الضرائر اللاتى لا ينظرن إليه ولا يحفلن به، لأنه لا يغنى عنهن شيئاً فيما يكون بينهم من تنافس وتباغض وخصام، وبين هؤلاء الصبية الذين يكثرون فى كل يوم وينبتون كما ينبت العشب فى الأرض، لا يدري كيف جاءوا. فأما أبوه فقد كان عطوفًا عليه حفيًا به أيام محنته، فلما بعد بها العهد، شغل عنه بهذه الهموم الكثيرة التى لا يتركها فى الدار إذا إلا ليلقاها فى المتجر، ولا يتركها فى المتجر إذا راح إلا ليلقاها فى الدار، وهو سعيد كل السعادة إن ترك هذه الهموم له طريقة حرة بين داره ومتجره، لم ينتظره فى هذا الثنى أو ذاك من أثناء الطريق، ولم يخرج له بعضها من هذا العطف أو ذاك من أعطاف المدينة. فهذا نوع من الشعور الذى كان يجده خالد عندما أب من القاهرة. ولكنه كان يجد نوعًا آخر من الشعور ليس اقل من هذا النوع تأثيرًا فى قلبه وحياته العاملة بنوع خاص. فقد كان يشعر كأن حملاً ثقیلاً ألقى عن عاتقه، وكأن شيئاً من الراحة والأمن رد إلى قلبه. ذلك أن لقاء امرأته كل يوم مصباحًا ومسيًا، ونظره إلى ابنتيه وما كان بينهما من اختلاف، وموازنته بين ابنتيه وأمهما، كل ذلك كان يسوءه ويؤديه، فقد أراحه الله من هذا السوء ورد عنه هذا الأذى، وأتاح له حياة فارغة، تؤذيه من غير شك، ولكن لا كما كانت تؤذيه حياته تلك المليء. وكذلك كان خالد يضطرب بين الحزن والرضا وبين القلق والأمن. وكان إذا أحس الرضا صلى ودعا وقرأ القرآن حامدًا لله على نعمته، وإذا أحس السخط صلى ودعا وقرأ القرآن حامدًا لله على نعمته، وإذا أحس السخط صلى ودعا وقرأ القرآن مستعينًا بالله على نقمته. وكان أشد ما يخاف أن يغرى به الشيطان فى وحدته على نحو ما كان يغرى به

قبل أن ترحل عنه زوجه، فكان يكثر من القراءة والدعاء والصلاة تحصنًا من هذا الشيطان، ولكن الله صرف عنه الشيطان صرفًا تامًا، كانت وحدته نقية حتى من التفكير فى الإثم، وكانت عزلته ظاهرة حتى من الشعور بأن له غرائز يجب أن ترضى. وقد هم أن يستأنف حياته الأولى فيختلف إلى المساجد ويتبع حلقات الذكر ويواظب على مجالس الوعظ، ولكنه لم يجد من نفسه نشاطًا إلى هذه الحياة، وإنما وجد من نفسه على عمل أحسن غناء وأقرب نفعًا من هذه الحياة المشردة. وقد ألقى فى روعه أن التقرب إلى الله لا يكون بالاختلاف إلى هذه المساجد والحلقات ومجالس الدرس والوعظ فحسب، وإنما يمكن أن يكون بأن يظل الإنسان على ذكر من ربه دائمًا، يذكره إذا خلا إلى نفسه، ويذكره إذا لقي الناس، ويذكره حين يقدم على العمل أو يحجم عنه، فتكون خشيته لله هى التى تحمله على الإقدام أو الإحجام، وكان خالد على ذكر من ربه دائمًا، حتى إن أيسر انفعالاته كان يترجم عنه بهذه الكلمات التى تجرى بها ألسنة الناس كثيرًا، ولكنها لا تصدر عن قلوبها إلا قليلًا، فكان إذا أنكر شيئًا أو أسخطه شيء قال: سبحان الله، وإذا رضى عن شيء أو سره شيء قال: الحمد لله، وإذا أعظمه أمر يسر أو يسوء قال: الله أكبر، وإذا أحس من حوله شرًا يدنو منه أو يبعد عنه قال: لا إله إلا الله. وكان الناس يحبون خالدًا فى المدينة ويعجبون به ويودون لو أن أباه ترك له تجارته وفرغ هو لما يعنيه من أمر دنياه وأمر دينه. ولكن أباه كان شديد النشاط لم يشعر بعد بالضعف ولم يحتج بعد إلى الراحة. وهم خالد أن يعين أباه على تجارته فلم ير من أبيه ابتهاجًا بهذا العون، ولم ير من نفسه ميلًا إلى التجارة. وإن له ابن عم لم نتحدث عنه إلى الآن، ويظهر أننا سنكثر الحديث عنه منذ الآن. كان له ابن عم يدعى سليمان، توفى عنه أبوه محمد ولما يبلغ السنين من عمره، فكفله عمه على من بعيد، يقوم بحاجته ويشمله ويشمل أمه خديجة بالبر المتصل. ولكن خديجة توفت عن ابنها ولما يتم العاشرة من عمره، فكفله على من قريب، ضمه إليه وأقره فى داره واتخذ لخالد أخًا، فكان يقسم بينهما حبه وعطفه وبره. وتلفت أم خالد هذا الصبى لقاء حسنًا، فبرته ورفقت به كما كانت تبر ابنها وترفق به. ورحم الله أم خالد! فقد كانت خيرة من جميع نواحيها، ولم تكن أم خالد إذا تحدثت إلى ابنها عن سليم تقول له: ابن عمك قال كذا أو فعل كذا أو كذا، وإنما كانت تقول له: أخوك قال أو فعل؛ وكان سليم يكبر خالدًا بثلاثة أعوام، فكانت أم خالد تلقى دائمًا فى روع ابنها أن سليمان أخوه الأكبر وأن له عليه حق الكبير على الصغير. وقد اتفق خالد صباه وهو مؤمن بأن سليمان أخوه، لم يتبين حقيقة الصلة بينهما إلا حين تقدمت به السن شيئًا. ولكن ذلك لم يغير من سيرته مع سليم قليلًا ولا كثيرًا. أحبه دائمًا، وأكبره دائمًا، ووقره دائمًا، وآثره دائمًا على إخوته بعد أن كثروا، فلم يكن يولى أبناء العلات من إخوته وأخواته إلا ميلًا قليلًا وعطفًا معتدلًا، فأما سليم فقد كان له وده كله وإخاؤه كله، حتى كان الناس يضربون المثل بما كان بين هذين الشابين من تعاطف ومودة. وقد تتابعت الأيام والأشهر والأعوام ومضى جيل من الناس وأقبل جيل، فلم يكد

الجيل الطارئ يشك في أن خالدًا وسليماً أخوان أبوهما على وأمهما تلك التي يقسم لها على بعد أن ماتت يومها فيما يقسم من أيامه بين نسائه. وكان الشيوخ يبسمون في حنان ورضا إذا سمعوا أحاديث الشباب بذلك، وقلما كانوا يردونهم عن هذا الخطأ الذي يصور مثلاً نادراً للمودة والإخاء. وقد بعدت الأسباب شيئاً بين هذين الصديقين الأخوين حين بلغ سليم رشده وأسلم إليه على ما ترك له أبوه، ولم يكن شيئاً ذا غناء؛ فقد جد الفتى واجتهد وأصلح من أمره واتخذ لنفسه زوجاً أبجها وأحبته، وأقام مع امرأته في دار خاصة به مقصورة عليه، فأدى ذلك عمه بعض الشيء أول الأمر، ثم اطمأن إليه بعد ذلك. وكانت زبيدة زوج سليم معتدلة الجمال، ولكنها كانت خفيفة الروح كثيرة المرح والدعابة في براءة وطهر وخفر. وكانت أسباب المودة قد اتصلت بينها وبين نفيسة على ما كان بينهما من اختلاف في النشأة والتربية، ومن اختلاف في المنظر بنوع خاص؛ فقد نشأت في القاهرة، ونشأت مترفة بيت ثروة وغنى، على حين نشأت زبيدة في المدينة وفي أسر لا تكاد تبلغ الطبقة الوسطى من الناس. وكان الصديقان الأخوان سعيدين بهذه المودة المتصلة بين زوجيهما، ينتظران منها خبراً كثيراً. وآية ذلك أن "جلنا" لم تكد تبلغ الشهر السادس من عمرها حتى خطبتها زبيدة لابنها سالم، وكان سالم في الثانية من عمره. وتضاحكت المرأتان لهذه الخطبة وقالت نفيسة لصاحبتهما: إنك لتسيئين الاختيار لابنك، فأين أنت من سميحة وهي على ما ترين من جمال ورواء؟! قال زبيدة ضاحكة: إن سميحة أكبر من سالم، وإنى أرى البركة في جلنا، وإن اسمها يعجبني، فإنه من أسماء "الذوات"، وسيسعدنى أن أسمع ابنى يدعو زوجه فيقول: يا جلنا، فأما سميحة فاسم بلدى كاسمك وكاسمى. وأى فرق بين سميحة وحميدة وخديجة. قلت لك: إنى أخطب جلنار، ولن يتزوج ابنى إلا جلنار. وكان الصديقان الأخوان قد جلسا غير بعيد، فلما سمعا هذا الحوار أعجبهما. قال خالد لسليم: أسمع؟ قال سليم: اسمع. قال: أرضيت قال سليم: رضيت. قال خالد: فامدد يدك ولنقرأ الفاتحة. فبسط سليم يده، وتصافح الرجلان وقرأ الفاتحة. ولم تشك الأسرتان منذ ذلك الوقت في أن سالمًا وجلنار، ولا سيما حين سمع على هذا النبأ فأقر الخطبة وبارك الخطيبين ورفع الأمر إلى الشيخ فأقره ودعا للعروسين، وانتهى النبأ إلى عبد الرحمن في بعض زيارته للمدينة، فقال لسليم وهو يبتسم: فإن ابنك ابنى منذ اليوم.

أقبل خالد ذات يوم بعد محنته على صديقه وأخيه، فتحدث إليه في شيء من أمن وثقه وقال له فيما قال: إنه ضيق بالحياة التى يحياها؛ فقد بلغ الخامسة والعشرين من عمره وليس له عمل يطمئن إليه ويكسب منه قوته. وقد تركت له أمه شيئاً، ولكنه لا يدرى أين هو فقد اختلط بمال أبيه، وأبوه لا يبقى على شيء. وقد أحب أن يعمل مع أبيه في التجارة فلم يجد من نفسه ولا من أبيه ارتياحاً إلى ذلك. وهو لا يشكو من أبيه بخلاً ولا تقثيراً، ولا يذكر أن أباه قد أنكر عليه تصريحاً أو تلميحاً هذه الحياة الفارغة التى يحياها، ولكنه هو ينكر هذه الحياة أشد الإنكار

ويمقتها أعظم المقت. وقد أخذت أسرة أبيه تعظم وتمتد، وأخذ بنوه وبناته ويكثرون، وما يحب أن يرزقه أبوه كما يرزق هؤلاء الصبية الصغار، أو كما يرزق هؤلاء النساء المحمقات.

قال سليم: أما انصرفك عن التجارة فإنى أراه الخير كل الخير؛ فليس لك ولا لى ولا لأمثالنا فى التجارة أرب. إنا لم نخلق لها أو قل: إنا خلقنا لتجارة قد انقضى عهدها. ألا ترى إلى هذه المتاجر الجديدة! أين منها متجر أبيك ومتاجر أصحابه الشيوخ! صدقنى! إن ملك ومثلى من الشباب ينبغى أن يتخذوا لأنفسهم أعمالاً جديدة. ألا ترى إلى هذه المناصب الحكومية الكثيرة فى المديرية والمراكز والمحاكم والدائرة السنية؛ إن كثيراً من الشباب يأتون من القاهرة أو من أقاليم غير إقليمنا يعملون فى هذه المكاتب والدواوين، فما لنا لا نعمل كما يعملون!!.

قال خالد: فإننا لم نهياً لعمل الحكومة. قال سليم: فإننا نحسن القراءة والكتابة والحساب، ولسنا بالمغفلين ولا بالحمقى. وما أريد أن يكون أحدنا مديراً أو مأموراً، وإنما يكفىك وكفىنى منصب الكاتب فى هذا الديوان أو ذاك. أما أنا فأحب أن أكون كاتباً فى المديرية. قال خالد: وأما أنا فأحب أن أكون كاتباً فى المحكمة الشرعية. قال سليم وهو يضحك: طبعاً بين المفتى والقاضى والمأذون. قال خالد: بين العمائم على كل حال. ثم سكت الفتیان حيناً، ثم قال خالد لصاحبه: إن هى إلا أحلام يا سليم؛ فقد علمت أن هذه المناصب لا تتال إلا بالواسطة. قال سليم وهو يضحك: أستم تقررعون فى أورادكم: "إذ لولا الواسطة لذهب كما قيل الموسوط" قال خالد: لا تعبت بأورادنا فإنى أخاف عليك عاقبة هذا العبث. قال سليم: فإنى لا أعبت بشيء. وإنما أبحث عن الواسطة وقد وجدتها. قال خالد: وجدتها؟ وما عسى أن تكون؟ قال سليم: كلمة من شيخنا فى أمرك وأمرى إلى الباشا تبلغنا ما نريد.

ولم يأت المساء حتى كان الفتیان قد راحا إلى الشيخ فأسرا إليه أمرهما. فلما استمع لهما صمت لحظة ثم قال: افعل إن شاء الله، ولكن استعينوا على قضاء حاجاتكم بالكتمان. ولم تمض أيام حتى امتلأ قلب على سروراً وبشراً، وأذيت مقادير هائلة من السكر فسقيت للأغنياء والفقراء جميعاً، وأقيم الذكر فى بيت على وذبحت الذبائح وطعم الناس وكثرت قراءة على لبعض الأدعية لأنه خاف على نفسه وعلى ابنه من حسد الحاسدين؛ فقد أصبح سليماً كاتباً فى المديرية يسعى بين الوكيل والمدير، وأصبح خالد كاتباً فى المحكمة الشرعية يجلس بين القاضى والمفتى، ويتلقى من المأذونين صكوك الزواج والطلاق بين حين وحين، وقد رزق كل واحد منهما راتباً شهرياً قدره أربعة جنيهات.

أنجز الشيخ وعده، فزار القاهرة وأقام فيها أسبوعاً، وأكرم عبد الرحمن فنزل عليه ضيفان وفرق أصحابه في المدينة تخفيفاً على مضيفه؛ فقد كانوا أكثر من أن تسعهم دار واحدة. ولكنه استبقى معه خمسة أو ستة من أصفياه الذين كان يحرص دائماً على أن يلزموه. وقد أراد عبد الرحمن أن يؤوى أصحاب الشيخ جميعاً، ولكن الشيخ رده عن ذلك رداً عنيفاً، وقال: لا يكلف الله نفساً إلا وسعها. قال عبد الرحمن في شيء من الاستحياء: فالأمر لك يا سيدنا، ولكنك ستكرمنى بأن تصلى ويصلى إخواننا عندى العشاءين، وبأن تقام في دارنا هذه حلقة الذكر. قال الشيخ: هو ذاك. ولم يكن معنى ذاك إلا أن تقام الولاتم في دار عبد الرحمن مساء كل يوم يشهدا العشرات من الرجال، والعشرات الكثيرة، منهم من هبط إلى القاهرة مع الشيخ، ومنهم من كان يقبل لزيارة الشيخ من القاهرة أو من المدن والقرى المجاورة لها. وقد نهض عبد الرحمن بهذا الحق كأحسن ما ينهض به الرجل الكريم؛ فكان إذا أصبح غداً خدمه الذين استأجرهم لهذه الفرصة على الشيخ وأصحابه بالطعام، ثم يخرج مع الشيخ وأصفياه فيزرون الموتى في قبورهم الأحياء في دورهم، ويصلون الظهر في مسجد من مساجد أهل البيت، ثم يعودون إلى دار عبد الرحمن حيث ينتظرهم الغداء، إلا أن يكون الشيخ قد استجاب لدعوة بعض أصدقائه من علماء القاهرة وأغنيائها. فأما العشاء وصلاة الليل وحلقات الذكر فكان هذا كله قد أكرم به عبد الرحمن. والشيء الذى لا يشك فيه هو أن أتباع الشيخ - وما أكثرهم - لم يتحملوا نفقة ما أقاموا في القاهرة، بل لم يتحملوا نفقة منذ تركوا المدينة حتى عادوا إليها. فما كان الشيخ ليقبل أن يرزأ أحد من أصحابه في ماله قليلاً أو كثيراً وهو يرافقه.

وكانت مجالس الشيخ في دار عبد الرحمن رائعة حقاً، يمتلئ لها قلب المضيف غبطة وسروراً، فكان الشيخ إذ صليت العصر اتخذ مكانه في صدر هذه الفناء الذى ينبسط أمام الدار، وأخذ أصحابه يقدون فيجلسون من حوله حتى يمتلئ بهم هذا الفناء. وقد أحس أهل الحى أن في دار عبد الرحمن عيداً أو شيئاً يشبه العيد، وأنه سيتصل ويمتد أياماً، فكان أغنيائهم وأوساطهم يقبلون ليشاركوا في هذا العيد من بعد. يجتمعون جماعات متكاثفة خارج الدار وهم يذكرون الله ويسبحون بحمده وقد ينجم من بينهم الشيخ ذو الصوت الحسن فيغنى لهم شيئاً من شعر الصوفية، أو الفتى ذو الصوت العذب فيغنى لهم شيئاً من أغاني القاهرة. وكانوا على كل حال في فرح ومرح، يطربون هذا الطرب الغريب الذى هو مزاج من العبادة واللهو البريء معاً. وكان الشيخ يعجبه ما يرى من ذلك وما يسمع، وكان كثيراً ما يقطع حديثه أو حديث بعض جلسائه ليصغى إلى هذا الصوت أو ذاك، وليسمع لما كان يبلغه من حديث القوم ولما كان يدعو إليه هذا الحديث غالباً من الضحك والصياح.

وكان زوار الشيخ من أهل المكانة في القاهرة يقبلون لزيارته، منهم من كان يقبل راكبًا بغلته يسعى بين يديه غلام من غلمانه، ومنهم من كان يأتي راكبًا عربية تجرها الخيول المطهمة. وكان مجيء هؤلاء الناس جميعًا يثير في نفوس هذه الجماعات كثيرًا من العجب وكثيرًا من الرضا، وكثيرًا من الفرح أيضًا، ولم يكن بين هؤلاء الزائرين على اختلاف طبقاتهم ومراكزهم زائر إلا طرح كبريائه وطبقته ومركزه عند باب الدار، ثم أقبل ساعيًا متواضعًا منخفض الرأس. فإذا دنا من الشيخ حياه ولثم يده، وجلس حيث يشير إليه الشيخ أن يجلس. وقليل منهم كان يستطيع أن يبدأ الشيخ بالحديث، وإنما كانوا جميعًا يتخذون مجالسهم في صمت، ويستقرون فيها لا يأتون حركة، ولا يديرون ألسنتهم في أفواههم، إلا أن يدعوهم الشيخ إلى شيء من ذلك بما يلقي عليهم من سؤال أو يسوق إليهم من حديث.

وكانت نفس الشيخ تصفو في مجله هذا للناس جميعًا صفاء ممتازًا، يصل إلى قلوبهم فيملؤها حبًا وإكبارًا. وكان صوته يعذب عذوبة رائعة تخلب أسماع الذين يحيطون به ويصغون إليه. وكثيرًا ما كان الشيخ يفاجئهم مفاجآت تملأ قلوبهم روعة وإيمانًا، فهو يتحدث إلى فلان أو فلان من جلسائه في شئونه الخاصة العامة، ولكنه يقطع حديث فجاءة ويطلق إطراقة خفيفة، ثم يرفع إلى الناس وجهًا مشرقًا كأنه القمر، ويقول في صوت مرتفع شيئًا: حدثنا فلان قال: حدثنا فلان، ويمضي بسنده متصلًا حتى يبلغ النبي (ص) ثم يروي حديثًا طويلًا أو قصيرًا، ثم يأخذ في تفسيره وتأويله في لهجة المؤمن الصادق، ولغة الرجل الذي يعرف كيف يصل إلى قلوب الناس ويبليغ أفهامهم، على ما يكون من اختلاف حظوظهم في الثقافة والعلم، وإذا القلوب تخفق، وإذا النفوس تدعن، وإذا دموع تنهل، وإذا عبرات تحتبس في الحلق، والشيخ ماض في حديثه وتفسيره، حتى إذا بلغ من ذلك ما يريد ألقى على جلسائه نظرة تحيط بهم جميعًا وتلا قول الله عز وجل: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ ثم يطرق لحظة، ثم يرفع رأسه، ويلتو الآية الكريمة: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ ثم يرفع صوته بهذه الكلمات وجلساؤه معه: "اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه كلما ذكرك الذاكرون وغفل عن ذكرك الغافلون". وإذا ذاك يكون المؤذن قد دعا إلى صلاة المغرب، فينهض الشيخ وهو يقول: المغرب جوهرة فالتقطوها. فإذا صلى وصلى الناس معه ودعا فقصر في الدعاء، مشى إلى المائدة ومشى معه الضيف جميعًا. وقام عبد الرحمن كأنه الجنى يشرف على طعامهم داخل الدار، وعلى عشاء هذه الجماعات المتكاثفة خارج الدار، وينفق هؤلاء في طعامهم وأحاديثهم وقتًا غير قصير. ثم يدعو الشيخ عبد الرحمن ويسأله باسمًا: ألا تظن أنه قد آن لك أن تستريح؟ فيقول عبد الرحمن: وأي راحة أثر عندي من هذا! ولكن صلاة العشاء قد وجبت يا سيدنا. يقول الشيخ:

الليل كله وقت لصلاة العشاء، ثم ينهض مع ذلك متثاقلاً فيخطو خطوات لا يلبث بعدها أن يسترد نشاطه ويعود شاباً فتياً، وإذا هو يقيم الصلاة ويؤم الناس، فإذا أتم الفريضة أكثر من التنقل، ثم يتحول عن القبلة ويأخذ في بعض الحديث ساعة أو بعض ساعة يستخفى أثناءها عبد الرحمن فلا يراه أحد. ثم ينظر الشيخ فإذا عبد الرحمن مائل بين يديه، فيقول: الآن أقيموا حلقة الذكر.

ولم يعرف عبد الرحمن في حياته كلها سعادة كالتى عرفها فى هذا الأسبوع، ولكنه لم يعرف فى حياته كلها شقاء كالذى عرفه بعد أن قفل الشيخ وأصحابه راجعين إلى المدينة. فقد كان حق هذه الزيارة الكريمة المباركة أن تتم قبل أعوام طويلة حين كانت تجارة عبد الرحمن الضخمة رابحة، وحين كانت ثروته العريضة نامية. فأما فى هذه الأيام التى كسدت فيها التجارة وتضاءلت فيها الثروة، وثقل فيها الرجل عن السعى وضعف عن احتمال الهم الملح والجهد الثقيل، فإن هذه الزيارة الكريمة المباركة قد تملأ قلب المضيف غبطة وسروراً، وقد تشيع ذكره والثناء عليه، وقد ترفع مكانه فى الجنة درجات، ولكنها بعد هذا كله تكلفه من النفقة ما لا طاقة له ولا قدرة عليه. وقد جد الرجل مع ذلك حتى نهض بالحق، وأدى ما استتبعه هذا الأسبوع من دين. ولكنه لم يكد يفرغ من ذلك حتى أحس الجهد وبلغ منه الإعياء، فلزم داره ولم يبرحها إلا حين دعى إلى رضوان الله بعد شهر.

لم تعرف المدينة قط عامًا كهذا العام، امتلأ فيه شهر الصوم بالخير والبركة وبالحب التواصل، ويذكر الله والعكوف على طاعته، حتى لم يشك الفقير فقرًا، ولم يحس البائس ضرًا، ولم يجد الغنى غرورًا بثروته ولا فتنة بماله وجاهة. إنما شاع في المدينة شيء من الدعة والأمن والأمل والرخاء، فصام الناس مخلصين لله في صومهم، وقد اطمأنوا جميعًا إلى أنهم سيفطرون إذا وجبت الشمس كما لم يتعودوا أن يفطروا، وسيؤدون صلاتهم على أحسن ما تؤدي الصلاة، وسيسمعون القرآن كأحسن ما تكون تلاوته وترتيله، وسيعودون إلى بيوتهم فينامون نومًا هادئًا مطمئنًا ليستقبلوا يومًا راضيًا سعيدًا. وكان الشيخ مصدر هذا كله؛ فقد عاد من القاهرة في هذا العام كما تعود أن يعود من أسفاره، فاحتجب عن أصحابه ثلاثة أيام. ثم ظهر لهم في اليوم الرابع، فقال لهم وسمع منهم، ولكنه قال لهم أثناء السمر: قد أظننا شهر الصوم. ثم التفت إلى خالد وقال ضاحكًا: وما أرى قاضيك إلا سيأمرنا بالصوم بعد غد. ثم أطرق ساعة ورفع رأسه وقال: صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته فإن غم عليكم فأكملوا شعبان ثلاثين يومًا. وما أرى أنه سيغم علينا غدًا، وما أرى أننا سنكمل شعبان ثلاثين يومًا. سنصوم بعد غد إدا، فأذنوا في الناس، وليبلغ القريب منكم البعيد في المدينة: أن من شاء أن يكرمني فهو ضيفي أثناء الصوم كله. فلما سمع جلساء الشيخ حديثه هذا وجموا له شيئًا كأنهم يعجبون لما سمعوا، وينكرون هذه الدعوة العامة. ولكن الشيخ قال في تودة وهدوء: إن الذين صحبوني منكم على القاهرة يعلمون أن يدي لم تمثلنا قط بالخير والنعمة كما امتلأتا في هذه الرحلة. والذين لم يصحبوني إلى القاهرة قد رأوا من غير شك هذه السفن الكثيرة الموقرة التي ألقت مراسيها على الشاطئ وأرسلت إلى ما كانت تحمل من أنواع الهدايا وضروب البر. ولست أدري ماذا أصاب الناس في هذا العام؛ فقد مرضوا كلهم بالكرم، وحرصوا كلهم على أن يعطونا مما أعطاهم الله فاجتمع لنا من ذلك ما لا نستطيع أن نستنفذه إلا أن يشاركنا الناس فيه، وإنما هو مال الله، فيجب أن يرد إلى الله. وهم بعضهم أن يتكلم، فابتدره الشيخ قائلاً: هون عليك! فإننا لم نكن ننتظر هذا الخير لنكفل لإبراهيم بعدنا حياة راضية، وإبراهيم بعد خليفتي فيكم، أنتم أوصيائي عليه. هنالك ارتج مجلس الشيخ وضج الناس بالبكاء، والشيخ ينظر إليهم باسمًا ويتلو السورة الكريمة: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ

﴿١﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْ لَهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا

﴿٢﴾. ثم يقول بعد إطرافه خفيفة: لقد رأيت رسول الله (ص) في المنام، وقد قال الغزالي إن النبي لا يرى في المنام. والله ما هكذا كان الأمل فيك يا غزالي! لقد رأيته بعيني رأسي هذا راكبًا بغلته. وسمعت يتلو هذه السورة في صوت ما سمعت قط صوتًا يشبهه حلاوة وعذوبة. فلما أفقت من

نومى ذكرت أن الله عز وجل نعى إلى سيد الخلق نفسه حين أنزل عليه هذه السورة، فأولت رؤياى هذه كما أول سيد الخلق نزول السورة عليه. ثم سكت وأطرق، وسكت القوم مثله وأطرقوا كأن على رءوسهم الطير، ثم رفع رأسه قائلاً: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ صدق الله العظيم.

فلما كان الغد امتلأت المدينة وما يليها من القرى والضياع بأن الناس جميعاً ضيف الشيخ أثناء شهر الصوم. واستجاب الناس جميعاً لدعوة الشيخ. فأما أغنياؤهم فكانوا يبتغون البركة والكرامة ويؤثرون رضا الشيخ، وأما فقراؤهم وذوو الحاجة منهم فكانوا يؤثرون البركة والكرامة ويؤثرون إرضاء حاجاتهم أيضاً. ويقول بعضهم لبعض: إن بركة الشيخ لشاملة، سنصوم هذا العام دون أن نشقى بالعلم أثناء الصوم، ودون أن ننتظر معونة تأتى أولاً تأتى من القادرين.

وكان الشيخ وخاصته يتبعون أصحاب الأسر من أوساط الناس وفقرائهم فيكرمونهم فى بيوتهم لا تتقطع عنهم مؤونة الشيخ، تأتيهم مصبحين وممسين، ولولا أن الباشا كان من أتباع الشيخ ومريديه والمؤمنين له المطمئنين إليه لشك فى هذا الكرم، ولأشفق من عواقبه على السلطان. ولكن الباشا نفسه كان من أسرع الناس استجابة لدعوة الشيخ وأكثرهم تردداً على مائدته. ولم يهمل أن يدعو الشيخ إلى قصره مرتين، ولم يهمل الشيخ أن يستجيب لهذه الدعوة كما تعود أن يفعل، وأن يستكثر من الأصحاب والأتباع، ويقول للباشا: فأما وقد دعوتنى فسأرزؤك فى مالك رزءاً عظيماً. ولم يكن الشيخ يهمل أن يزور الأغنياء من أهل المدينة، ويستجيب لهم إذا دعوه، فيفطر على موائدهم ويصلى عندهم العشاء والتراويح، ويسمع لقرائهم. وكان الشيخ قد دعا قراء المدينة جميعاً ليقروا فى داره وفى دور أصحابه، حتى لم يدع منهم قارئاً حسن الصوت إلا ضمن له تلاوة القرآن أثناء شهر الصوم، وحتى احتاج إلى أن يدعو قراء من المدن القريبة يقرءون عنده. ولم يدع أثناء هذا الشهر أحداً من أصحابه إلا اختصه بشيء من حديث.

وفى ذات ليلة كان يتحدث بين سورتين من سور القرآن، والخدم يطوفون بقهوة والقرفة على جلسائه، وإذا هو يقطع حديثه فجاءة وينظر إلى اثنين من أصحابه كانا يتحدثان، أحدهما على أبو خالد، والآخر رجل من أصفيا الشيخ ومن أغنيا الريف القريب يقال له الحاج مسعود. نظر إليهما نظرة نافذة قطعت حديثهما وردتهما إلى الصمت، وقال لهما: فيم تتحدثان؟ فهم على أن يجيب، ولكن الشيخ لم يمكنه من الجواب، وإنما قال: استمع لى يا مسعود! احذر صديقك علياً هذا، إنه يدور حولك لتزوجه إحدى بناتك؛ فلا تفعل فإنه مزواج مطلق، ولكن عليك بابنه خالد؛ فإن فيه البركة وعنده الخير، وما أرى إلا أنه سيصهر إليك وسيخطب صغرى بناتك. إنى

ما زلت أذكرها، إنها لخيرة مباركة، فإن فعل فلا تردده خائبًا، وإن لم يتح لى أن أزوجهما فسيزوجهما ابني إبراهيم. فأما على فبهت وضحك ضحكًا خفيفًا. وأما الحاج مسعود فنهض من فوره وسعى إلى الشيخ فقبل يده وبللها بدموعه، وكان رجلاً رقيق القلب بكاء، وقال فى صوت تقطعه العبرة: بل يبيحك الله وبطيل عمرك يا سيدنا وتزوج سائر بناتى كما زوجت من تزوجت منهن. قال الشيخ وهو يضحك: يا غلام! قهوة سوداء للحاج مسعود، فما يرقى عبرته هذه إلا القهوة السوداء. اجلس يا مسعود بارك الله عليك وبارك لك فى بناتك وفى ذريتك، ثم استأنف حديثه من حيث قطعه وجلساؤه يرون ويسعون ويعجبون ويقول بعضه لبعض: لقد نالها الحاج مسعود! من يعدل الحاج مسعود! ليتنى مسعود!

على أن شهر الصوم لم ينته دون أن يحمل إلى الشيخ وإلى أصحابه نبأ محزنًا؛ فقد جاءهم من القاهرة نعى عبد الرحمن قبل أن ينقضى الشهر بثلاثة أيام. فلما اقبل على يحمل النبأ إلى الشيخ بكى واسترجع وقال: تبارك الله! لقد كنت أظن أنى سأسبقه فقد سبقني. ثم سكت لحظة واستأنف حديثه فقال لعلى وابنه خالد: فإنكما تذكرا ما أعطيت عنكما من العهد. قالوا: نعم. قال: فاذهبا إلى القاهرة فأديا الواجب، وضما إليكما نفيسة وابنتيها وأمها. ثم التفت إلى على وقال له كالمساخر منه الراى له: ولا تنتظر مالا يا على فقد أتينا على مال عبد الرحمن كله حين زرناه، وانصراف الآن فإن لى مع خالد حديثًا لا أحب أن تسمعه قال الشيخ: أعوذ بالله من ذلك! وإنما أريد أن أتحدث إلى خالد طاعة لأمرك، ولكنى لست راضيًا. قال الشيخ: سترى. وخرج على متثاقلاً كالخزيان. فلما خلا الشيخ إلى الخالد، قال له: ستكون براً بنفيسة وأمها يا بنى. قال خالد: فقد أعطيت على ذلك عهد الله يا سيدنا. وأنا أجده. قال الشيخ: وأول البر بها أن تطلقها. فوجم خالد لهذا القول، ولكن الشيخ مضى يقول: إنها لا تصلح لك زوجًا، ولا تصلح زوجًا لأحد، وما ينبغى لها أن تحمل ولا أن تلد، فطلقها فتحسن إليها وإلى نفسك. إنك ستزوج، وستزوج من بنت مسعود، وستزوجها بعد عام أو عامين، لأنها لم تبلغ طور الزواج، بعد إذا تزوجها فلا تفرض عليها ضرة، فإنها لن تحتل الضرائر، ولا تمسك نفيسة فى هذا الزواج العقيم، ولا تكلف نفسك عدلاً تطيقه وقلما يطيقه الناس. طلق نفيسة يا بنى واضممها مع ذلك إلى أهلك، وسر معها سيرتك مع أختك، واستقبل حياتك مباركًا موفورًا. وترحم على كلما أصابك خير، واستغفر لى كلما امتحنتك الأيام بما تكره فإنى لم آلك نصحًا. ثم مسح رأسه وقبل بين عينيه وقال: انصرف راشدًا، فسنصلى ونقيم الذكر، وسنذكركم فى صلاتنا ودعائنا، وسنستنزل رحمة الله على عبد الرحمن.

وأتمت المدينة شهر الصوم كما بدأت سعيدة راضية، واستقبلت عيد الفطر هائلة ناعمة، ولكنها ارتجت وارتج معها الإقليم كله فى اليوم الثالث من أيام العيد؛ فقد صلى الشيخ بأصحابه المغرب، حتى إذا أتم الركعة الثالثة وجلس للتشهد لم يرع الناس إلا أن رأوه يكب على وجهه قبل

السلام، فيسرعون إليه فإذا هو قد صار إلى رضوان الله. ومنذ ذلك الوقت لم يشك أحد من أهل المدينة ولا من أهل الإقليم في أن الله قد آثر الشيخ بهذه الكرامة، فنقله إلى جواره أثناء الصلاة، وأقره في جنته بين الصديقين والشهداء.

صلى إبراهيم بأصحابه العشاء وسمع معهم القرآن وأقام لهم حلقة الذكر. فلما هم الناس أن يتفرقوا استبقى أصفياء أبيه، حتى إذا خلا لهم المجلس قال لهم فى صوته الهادئ: تعلمون أن الشيخ رحمه الله كان قد أزمع الحج من عامة هذا، وكان عليه حريصاً يريد أن يتم الحجة السابعة، ولكن الله آثره برحمته قبل أن يبلغه هذه الأمنية. وقد استخرت الله ورأيت أن أتم له ما لم يتح له، فأنا مستعد للحج إذا كان الغد، وواهب ثواب هذه الحجة إن أثابنى الله عليها للشيخ. فمن أراد منكم أن يحج معنا فليتجهز من غده، ومن كان ذا عيلة فإن علينا نفقته؛ فقد ترك الشيخ لنا خيراً كثيراً. ثم أطرق إطرقة ورفع رأسه قوال: وتحدثوا بذلك إلى من شئتم من أصحابكم والذين يلونكم؛ فإنى لا أكره أن يكثر الحج على اسم الشيخ، وأن أعين على أداء هذه الفريضة من عجز عن أدائها، فماذا ترون؟ قالوا كلهم: إنما رأيت رشدًا، وقد خار الله لك فيما ألهمك، وكلنا أسرعهم إلى الجواب مسعودًا، فقد حج مع الشيخ ست مرات، وكان مزعمًا أن يحج معه السابعة، فلما توفى الشيخ فترت مهمته عن النفير. وها هو ذا يسمع ابن الشيخ يستأنف حديث الحج، فلا تسل عما ملأ قلبه من رضا وما شاع فى نفسه من حبور. ولكن الدموع كانت تترجم دائماً عن سروره وحبوره، كما كانت تترجم دائماً عن خشيته لله وخوفه منه، وكما كانت تترجم دائماً عن تأثر قلبه حين كان يسمع صوتاً حسناً يتلو القرآن أو يغنى فى الحلقة بشعر ابن الفارض. فأما خطوب الدهر وأحداث الدنيا وهذه المصائب التى تلم بالناس فتفرعهم وتروعهم فقد كان يلقاه بقلب جلد ونفس ثابتة وعين شديدة البخل بالدمع. ولم يكن يبكى لأمر من أمور الدنيا إلا أن يربأ فى ولد أو صديق فتذرف عيناه دموعاً غزيراً وقتاً قصيراً، كأنهما السحابة، لا تكاد تجود ببعض مائها حتى تطلع، وإذا هو يتوب إلى الله ويستغفره، ويلوم نفسه لأنها بكت على أمر من أمور الدنيا، وليس فى أمور الدنيا ما يستحق البكاء. على أن عبرته لم تكد ترقأ منذ توفى الشيخ؛ وأكبر الظن أنه لم يكن يرى فى وفاة الشيخ خطباً من خطوب الدنيا، وإنما كان يرى فيه خطباً عظيماً من خطوب الدين؛ فقد كان الشيخ رحمه الله مثلاً رائعاً للتقوى والورع، وداعياً صادقاً إلى الله ورسوله، لا يكاد يدعو حتى تهرع إليه القلوب وتذعن له النفوس، ولا ينصرف المستمعون له إلا وقد زاد مؤمنهم إيماناً، وأقلع جاحدهم عن جحوده، وهم مقصرهم فى ذات الدين أن يستدرك ما فات إن استطاع، وأن يستأنف حياة فيها رشاد وخير.

وكان الحاج مسعود مشفقاً أشد الإشفاق أن يقصر إبراهيم عن غاية أبيه؛ فقد كان يرى فى حياة الشيخ فتوراً ونفوراً وإقلالاً من التردد على مجالس الشيخ وحلقات الذكر. وكان يحدث نفسه فى كثر من التردد والخوف بأن إبراهيم قد أطل المقام فى القاهرة، والاختلاف إلى الأزهر، والاتصال بشيوخه. ولم يكن مسعود ينفر من شيء نفوره من الأزهر. وشيوخه؛ فقد سع منهم

وتحدث إليهم، ورأى فيهم ميلاً إلى التأويل وإقبالاً على التكلف، وربما رأى من بعضهم ازوراراً عن الشيخ؛ فكان هذا كله يسئ ظنه في الأزهر والأزهريين، ويملاً نفسه إشفاقاً على إبراهيم من لزومه لحلقات الدرس واستماعه لهؤلاء الشيوخ الأعلام. وقد اجتراً مرة على الشيخ فقال له في لهجته القروية التي لم تكن تخلو من عنف حلو: ألا تتبئني فيم ترسل ابنك إلى القاهرة ليطلب العلم في الأزهر وعلماء الأزهر يتكلفون الرحلة إليك ليأخذوا قليلاً من علمك، ومنهم هؤلاء الثلاثة الذين يلزمونك منذ أعوام لا يفارقونك، والذين تشتد عليهم في تأديبك لهم، وتأخذهم بالعنف أكثر مما تأخذهم بالرفق وهم راضون بذلك متهاكون عليه؟! فهلا أمسكت ابنك وعلمته مما علمك الله وأدبته كما تؤدب هؤلاء النفر، وأعدته لخلافتك في أصحابك كما أعدك شيخنا لخلافته فينا؛ وهنا تحطم صوته وانهلث دموعه. فرحمه الشيخ وقال ضاحكاً: ما أنت وذاك يا مسعود؟ أتراني كنت ابناً للشيخ؟ قال مسعود: لا. قال الشيخ: أترى أن قد كان لشيخنا أبناء؟ قال مسعود: نعم. قال الشيخ: ومع ذلك فقد صرف خلافته عن أبنائه وآثرني بها، فما يدريك أن ابني سيكون خيلفتي فيكم؟ وهؤلاء الثلاثة الذين تتحدث عنهم لقد وعوا علم الأزهر كله، ثم جاءوا يطلبون ما عندي من العلم فدع إبراهيم يحفظ من علم الأزهر مثل ما حفظوا، ولك على أن أكون بتعليمه هنا حفيماً، وأن أعنف به في التأديب كما أعنف بهؤلاء النفر إن رأيت فيه صلاحاً لذلك الأمر وقدرة على النهوض به. فلما رأى مسعود أن إبراهيم لم يكد يتم الأسبوع الأول بعد وفاة أبيه حتى فكر في الحج ودعا إليه، ولم يفكر في الحج لنفسه، وإنما يفكر في الحج لأبيه، رضيت نفسه واطمأن قلبه وسالت دموعه على لحيته غزاًراً. وابتسم الشيخ الشاب له كما كان يبتسم له أبوه من قبل، وقال: كفكف دمعك يا مسعود، ألا يمكن أن تنفق ساعة لا تذرف فيها دمعاً، ثم التفت إلى رجل من أصفائه كان في آخر المجلس لم يظهر نشاطاً شديداً للحج، وإنما أجاب كما أجاب الناس، ولم يكن هذا الرجل إلا علياً، التفت إليه إبراهيم وقال: أما أنت يا علي فمتخلف عنا. قال علي: وكيف ذاك؟ أتأمرني بالتخلف؟ قال الشيخ الشاب: لا أمرك به، ولكن أنبئك بما سيكون من أمرك، ستهم كما يهم غيرك حتى نرى أنك مسافر معنا، ثم نفتقدك فلا نراك، ثم تعتذر إلينا إذا انقلبنا؛ لأنك قد شغلت بمالك وأهلك. فإن استطعت أن تعتذر منذ الآن فافعل، ولا تكلف نفسك مشقة لا تغنى، ثم تضاحك وقال: إنك حديث عهد بزواج. وكاد على يغضب ولكن كيف يكون الغضب على الشيخ، إنما يغضب الشيوخ على مريديهم. وقد كظم على شيئاً في نفسه وانصرف متردداً لا يدري أيقدم على الحج أم يحجم عنه. ولم يكن الشيخ مخطئاً فيما قدر من أمر علي، فقد كان حديث عهد بالزواج، يتزوج للمرة الثامنة بعد أن طلق نساءه من طلق. وكانت عرسه في هذه المرة فتاة لم تبلغ العشرين، وكان بها مفتوناً وبحبها متيماً. فكان الذي أغراه بهذا الزواج هو شيخه رحمه الله حين عبث به ذات ليلة، وقال لمسعود: إنه سيخطب إليك إحدى بناتك، فلا تزوجه إن فعل، وعليك بابنه خالد فإن فيه بركة وخيراً؛ هنالك ضحك على ضحكاً سخيلاً

وانصرف وفي نفسه شيء، ولكنه لم ينقطع عن التفكير في أن يتخذ لنفسه زوجًا شابة. ألم يكن قد طلق زينب ولم يمسك في داره إلا خديجة ومحبوبة وذكرى أم خالد؛ فله الحق في زوج رابعة. وقد بحث عن زوج رابعة، فما أسرع ما اهتدى إليها عند بعض عملائه من تجار المدينة، وكان رجلاً متواضعًا ضئيل التجارة. فلما سعى إليه على ذو المكانة والجاه خاطبًا ابنته "هناء"، رأى في ذلك شيئًا من الشرف وارتفاع القدر، فقبل خطبته راضيًا، وزوجه مغتبطًا، ولم يفكر في أنه يهدى هذه الفتاة التي لم تبلغ العشرين إلى شيخ قد ناهز الستين. على أن "هناء" لم تلبث أن استأثرت بعقل الشيخ وقلبه، وتحكمت فيه تحكمًا لم يعرفه قط من إحدى نساءه، وكادت تصرفه عما فرض على نفسه من العدل بين أزواجه لولا أنه أخذ نفسه بالعنف واشترى رضا "هناء" عن هذا العدل بكثير من الهدايا والمنح، فأحفظ ذلك وجيه الآخرين، وجعل منزله جحيماً، ولكنه احتمل هذا الجحيم، وكان خليقاً أن يحتمل أضعافه في سبيل "هناء". ويجب أن نعترف بأن "هناء" على سحرها وطغيانها لم تستطع أن تغير من سيرة على مع ذكرى أم خالد قليلاً ولا كثيراً. لولا ما كان من موت عبد الرحمن وسفر على إلى القاهرة مع ابنه خالد، ثم ما كان من موت الشيخ فجاءة لتحدث على إلى الشيخ الشاب يعبت بعلى على هذا النحو، فيثير في نفسه شيئاً فنلمسه نحن فتوراً. وكان فتوراً ثقیلاً حقاً؛ فقد أصبح على وقد صمم على ألا يتجهز للحج: فهو مشغول بأهله حقاً. ألم يتزوج منذ أسابيع؟ فما تركه لامراته أشهراً! وإلام يصير الأمر بين أزواجه إذا تركهن؟ وهو مشغول بالمهن فتجارته متأخرة ما رأيت. وقد صدق الشيخ حين قال له: لا تنتظر أن يترك لك عبد الرحمن مالا. فلم يترك عبد الرحمن مالا، وإنما ترك أربع نسمات قد نقلن إلى المدينة ليعشن في كنف على وابنه خالد. وسيحتجن إلى نفقة من غير شك، وستزداد أعباؤه ثقلًا، فلا بد من أن يعمل، ويعنى بتجارته لينهض بهذه الأعباء. وليس من شك في أن خالدًا يعينه على بعض أمره منذ أصبح موظفًا. ولكن أين تقع معونة خالد من هذه البطون التي لا تمتلئ والأفواه التي لا تشبع ومن هذه الدار التي كان يشبهها على بجرة لا فعر لها، فلا سبيل إلى أن تمتلئ. وأمسى على من يومه ذاك فصلى مع الشيخ، وشهد معه حلقة الذكر. فلما تفرق الناس أقبل على الشيخ مستخذيًا وهو يقول: لقد أنبأتني بالحق أمس يا سيدنا. قال الشيخ: ألم اقل لك إنك لن تستطيع أن تنفر معنا؛ فأصلح من أمرك وانصح لأهلك ومالك، وأقم على طاعة الله وابتغاء مرضاته، وفكر في أنك لم تؤد فريضة الحج بعد، وفي أن من الحق عليك أن تؤديها. وإنى لأرجو إن أتاح لي الله حياة أن أحج لنفسي من قابل، فاجتهد أن تصحبني في هذه الحجة. وخرج على راضيًا كل الرضا؛ فقد قبل الشيخ عذره من غير مشقة، وفتح له بابًا واسعًا من أبواب الأمل؛ فليصلح من أمره، وليحسن تدبير ماله، وليحجن مع الشيخ في العام المقبل. بينه وبين ذلك عام كامل تهدأ فيه ثورة الحب هذه التي كادت تفسد قلبه، وكادت تجعله عبدًا لهذه الفتاة التي تسمى هناء. إنها لهناء كاسمها، إن وجهها لجميل مشرق، وإن لها لقوامًا معتدلاً، وإنها

لتحسن العناية به والحنو عليه، وإنها لتلقاه بابتسام حلو شاب لم يعهده عند غيرها من النساء، وإن صوتها ليقع من قلبه موقعًا عذبًا كأنه قطرات الندى. ويروح على هناء، فإذا دخل وجدها ساهرة تنتظره، ولكنه لا يلتفت إليها ولا يلقي إليها حديثًا، وإنما يستقبل القبلة فيركع ركعتيه، ويتمم بدعائه القصير، ويأوى إلى فراشه وهو يتلو آية الكرسي، ثم يبتسم لزوجته ويقول: لقد كدنا يا هناء أن نفترق أشهرًا، ولكن الشيخ أذن لي في أن أوجل الحج عامًا.

وعاد على وخالد بنفيسة وأمها وابنتيها من القاهرة بعد أن نظما ما كان قد ترك عبد الرحمن من اضطرب قليل، وأديا من ماله ما أعجله الموت عن أدائه من الدين. ونظرا فإذا هاتان المرأتان لم ترثا عن عبد الرحمن إلا داره الفخمة هذه، ودنانير يمكن أن تحصي في غير مشقة ولا جهد. وقد تحدث على في أن يبيع هذه الدار، فبكت نفيسة ولم تقل شيئا. وقالت أمها: لو عاش عبد الرحمن ما بيعت الدار، فأعرض على عن هذا الرأي وتحدث من الغد عن تأجير الدار، فبكت نفيسة ولم تقل شيئا وقالت أمها: وترضى أن يسكن هذه الدار غير عبد الرحمن، وأين تنزل وينزل خالد حين تأتيا إلى القاهرة! وأين ننزل نحن إن أتيحت لنا العودة إلى القاهرة؟! ثم التفتت إلى خالد وقالت: فستأذن لنا بأن نأتي إلى القاهرة لنزور قبر عبد الرحمن؟ قال عليك سنأتي إلى القاهرة جميعا لنزور قبر عبد الرحمن. ثم أعرض عن تأجير الدار. وتهيا القوم للسفر، وأغلقت الدار. وجعلت أم نفيسة والعربة تمضي بها تلتفت ونطيل النظر إلى دارها لا تقول شيئا، حتى إذا انعطفت بها العربة في بعض الطريق ولم تبق سبيل إلى رؤية الدار، اعتدلت المرأة في مجلسها وقالت لخالد: فأين مفتاح الدار؟ فأني أحب ألا يفارقني. هنالك دفع إليها خالد مفتاحها وإن شفثيه لتبتسمان وإن قلبه ليتقطع حزنا.

وقد أقر على هاتين المرأتين وهاتين الصبيتين في جناح من داره منعزل يوشك أن يكون دارا مستقلة. وكان حريصا أن يقرهن في هذه الناحية ليعشن بمعزل عن هذه الضوضاء التي تمتلئ بها داره، والتي تأتي من نساءه المختصمات دائما ومن بنيه وبناته الذين لم يكونوا يعرفون السكون. وقال خالد لأبيه وهما يتحدثان في ذلك: إنه لرأى صائب. سيكون مستقلات أو كالمستقلات، ولن ترى نفيسة السلم فليس في هذا لجناح سلم، ولن تلقى جنية البيت هذه المجرمة التي تسكن حنايا السلم وتسعى بالفساد بين الأزواج. قال ذلك وهو يضحك ضحكا حزينا. قال علي: وستقيم معهن. قال خالد: أما هذه فلا؛ فإن نفيسة لا تصلح لي زوجا ولا تقدر على عشريني. ألم تر غليها تحتجب من دوني! إنها لا تكاد تعلم بمقدمي حتى تلقى على رأسها ووجهها ما يسترهما، وإنها لا تتحدث إلى إلا همسا ومن طرف لسانها، وإنى لأوجه القول إليها فلا تملك أن تجيبني، وما أكثر ما تجيبني عنها أمها وابنتها، وسأزورهن بين حين وحين، وسأنهض بما لهن على من حق حتى يقضى الله أمرا مفعولا.

وكذلك أقام هؤلاء النسوة في طرف من أطراف الدار، لا يكدن يسعين إلى أهلها، ولا يكاد أحد من أهلها يسعى إليهن. وكانت لأم خالد أمة سوداء قد أعتقها القانون، ولكنها ظلت وفية لمولاتها. فلما ماتت وفت لسيدها خالد ووفى لها خالد، فكانت تقوم على العناية به والإصلاح من

أمره. ولم يكن خالد يألف من هذه الدار الواسعة وبين هذه الأسرة الضخمة إلا شخصين اثنين هما أبوه ولم يكن يلقاه إلا قليلاً، ومولاته نسيم وكانت تتلقاه مصباحة بما يحتاج إليه، وتتلقاه ممسية بما يحتاج إليه، وتعكف على نفسها بين ذلك في الدار لا تحفل بأحد ولا يحفل بها أحد. فلما حمل هؤلاء النسوة من القاهرة وأقررن في طرف من أطراف الدار، قال خالد لنسيم: إن كنت تحبينى وإن كانت فى نفسك بقية من الحب لمولاتك، فقومى على العناية بهؤلاء النسوة وامنحيهن من حبك وبرك مثل ما تمنحيني، ولا تشغلى نفسك بى فإنى أحسن تدبير أمرى. قالت نسيم وهى تضحك: تحسن تدبير أمرك - وكانت تنطق الحاء هاء - وأنت لا تحسن أن تجد ثيابك ولا أن تلبسها إلا أن تهينها لك نسيم؛ تحسن تدبير أمرك! ومن يقدم إليك القهوة؟ ومن يقدم إليك غداك وعشاءك؟ ثم ضحكت له بوجه كأنه وجه القرد، ولكنه على ذلك كان جميلاً فى عين خالد، يجمله ما كان يغمره من حب وحنان. ضحكت له وقالت: سأخدمهن كما أخدمك؛ فإنى كنت أفضى يومى ولىلى فارغة لا أعمل شيئاً، فقد أصبح لى عمل منذ الآن.

ولم تكد نفيسة تراها حتى اطمأنت إليها، ووثقت بها الصبيتان وأحبتهما هى أشد الحب، فما أكثر ما تمنى أن يكون لها ولد تعنى به، فقد أرسل الله إليها ابنتين تعنى بهما.

ثم يعود الشيخ من حجة بعد أشهر، ويهرع أهل المدينة وأهل الإقليم إلى لقائه مقبلاً، وإلى زيارته وتحيته بعد أن استقرت به الدار. ويسعى على ليه فيمن يسعى، فيلقاه الشيخ أحسن لقاء، ويدفع إليه سبحة ضخمة الحبات وهو يقول له: لقد ذكرتك فى مكة واستغفرت لك، وسألت الله لك عفواً وعافية فى المسجد الشريف، وأنا أهدى إليك هذه السبحة على شرط ألا تفارقك عن إرادة منك، وعلى شرط أن تدير ذكر الله عليها مرة فى كل يوم وتهب ثواب هذا الذكر لوالدى رحمه الله. فيكب على على يد الشيخ لثماً وتقبيلاً، ويأخذ السبحة فيقبلها مرة ومرة، وأصحاب الشيخ ينظرون إليه ويقول بعضهم لبعض همساً: لو قال الشيخ هذه المقالة للحاج مسعود لأجهش بالبكاء، ولكن انظروا إلى على ما أقسى قلبه! إن وجهه ليبسم كأن الشيخ يداعبه.

ويقبل خالد لزيارة الشيخ فيمن أقبل، فيلقاه الشيخ لقاء حسناً ويمنحه يده ليقبلها، ثم يقول له: إذا فرغنا من هذه الزيارات فالقنى فإن لى معك حديثاً ويسعى خالد إلى الشيخ بعد أيام، فإذا رآه الشيخ أدناه واستبقاه، حتى إذا خلا إليه قال: ألم أعلم أن أبى كان قد خطب لك بنت الحاج مسعود؟ قال خالد: بلى. قال الشيخ: فأين أنت من هذه الخطبة؟ قال خالد فى شيء من استحياء: فإن الحول لم يحل على موت عبد الرحمن. قال الشيخ: وصلتك رحمٌ يا بنى وبارك الله عليك! ولكن لنقرأ الفاتحة فأما الزواج وزفاف أهلك إليك فاضرب لهما ما شئت من موعد، و"منى" ما زالت بعد صبية. ثم صفق بيديه، فلما أقبل الخادم قال له الشيخ: ادع لى الحاج مسعوداً، وأقبل الحاج مسعود، فاستدناه الشيخ حتى أجلسه على يمينه على كره منه، فقد كان

الحاج مسعود يحرص دائماً على أن يقوم بين يدي شيخه الكبير ثم بين يدي شيخه الصغير، لا يجلس إلا مأموراً. فلما استدناه الشيخ وأجلسه عن يمينه استعظم ذلك وأخذت دموعه تسيل. قال الشيخ: أما ترحمنا من دموعك هذه آخر الدهر! كفكها ولو ساعة، ابسط يدك فقد أنى لنا أن ننفذ وصية الشيخ. ثم بسط الحاج مسعود يده وبسط الشيخ يده فتصافحا، وقرأ الفاتحة الثلاثة وإن الحاج مسعوداً لينتخب بقراءته انتخاباً.

وكان الحاج مسعود نادرة في عصره وبيئته. كان رجلاً أمياً لا يقرأ ولا يكتب، وكان مع ذلك يحفظ القرآن كأحسن ما تكون التلاوة، لولا أن تلاوته هذه كانت تضطرب أحياناً، وربما انقطعت بهذا البكاء الذي كان يغلبه كلما قرأ آية فيها نذير أو تبشير. وكان أبوه الحاج عمران أمياً مثله، أو قل إنه كان أمياً كأبيه الحاج عمران. وكانت الأمية مذهباً لهذا الشيخ من شيوخ الريف المصري؛ فقد أبى أن يرسل ابنه إلى الكتاب لأن أباه لم يرسله إلى الكتاب... وكان يقول: ينبغي أن ندع القراءة والكتابة والحساب لهؤلاء الأقباط الذين يغنون عنا بها في كل ما نحتاج إليه... علينا أن نتجر ونثمر المال إن كنا من أصحاب التجارة، وأن نزرع ونستثمر الأرض إن كنا من أصحاب الزرع، وأن ننهب ونملأ الأرض فساداً إن لم نكن من أولئك ولا هؤلاء. فإن احتجنا إلى شيء من قراءة أو كتابة أو حساب فأهون هؤلاء الأقباط يكفيننا مؤونة ذلك. وكان يشير إلى شيخ يكاد يماثله في السن ويقول: أنظروا إلى هذا المعلم مرقص؛ لقد رأيت يكتب لأبى، وهو قد كتب لى حتى أخذ يضعف كما أضعف، ولكنه علم ابنه بطرق الكتابة والحساب ليقوم مقامه إن عجز عن العمل، كما علمت ابني مسعوداً التجارة في غلات الأرض ليقوم مقامى حين تقعدنى السن عما أسعى فيه الآن من البيع والشراء. وكان الناس ربما ذكروا له أنه مسلم غنى، وأن من الحق عليه أن يقرئ ابنه شيئاً من القرآن ويعلمه شيئاً من العلم؛ فإن ما يقضى بالجهل على الفقراء هو الأمية. فكان ذلك يضحكه ويحفظه في وقت واحد: كان يضحك لأن رأى أباه يحفظ من القرآن ما يجزئ عنه في صلاته، وقد حفظ هو من القرآن ما يجزئ عنه في صلاته أيضاً، وعلمه ابنه فحفظه؛ وآية ذلك أنه صلى ويجهر بالقراءة حيناً ويخافت بها حيناً آخر، لا يأخذ عليه أحد خطأ فيما يقرأ القرآن في صلاته فلا يخطئ فيما يقرأ منه. والله لم يأمر المسلمين بأن يحفظوا القرآن كله ولا بأن يقرءوه كله، وإنما أمرهم أن يقرءوا ما تيسر منه؛ فأما حفظه كل هو قراءته كله، فيكفى أن ينهض بهما الذين تفقهوا في الدين. وكان يغتاض حين يرى الزرية على الأمية والغضب من الأميين. كان يرى في ذلك شيئاً من الإثم؛ لأن النبي ﷺ كان أمياً، ولأن العرب كانوا أميين، لم يعابوا بذلك ولم يغضب ذلك من قدرهم قليلاً ولا كثيراً. ولم يكن يغنى شيئاً أن يقال للحاج عمران إنه ليس النبي ولا شيئاً يشبه النبي من بعد. فإذا كانت أمية النبي آية له، فأمية الحاج عمران نقص فيه، وإن العرب لم يفاخروا قط بأميتهم، وإنما جاء النبي ليخرجهم من هذه الأمية. لم يكن من المفيد أن يقال شيء من ذلك للحاج عمران؛ فإنه لم يكن يسمع له أو يلتفت إليه، وإنما استقرت هذه الآراء في نفسه لا تبرحها، وأقفل الأفق بينه وبين ما وراء هذه الآراء من المعانى و الحقائق، فه ولا يتجاوز ولا يعدوه. كان ابنه مسعود رأيه ويسير سيرته في كل شيء: جهل بالقراءة والكتاب، ومفاخرة بهذا الجهل، وبراعة في التجارة وتزيد في هذه الزراعة،

وانصراف عن الشر ما وسعه الانصراف عن الشر، وإيثار للخير والمعروف ما أطاق إيثار الخير والمعروف. ولكن الله أتاح لمسعود ما لم يتح للحاج عمرا، فوصل أسبابه بأسباب الشيخ حين ارتحل الشيخ لأداء حجته الأولى، فكان مسعود ممن سافروا مع الشيخ وأدوا معه الفريضة وقد ألقى الله في نفسه حب الشيخ، فكان يلزمه أثناء السفر ويتطوع لخدمته، يضايق بذلك خاصة الشيخ وأصفياه. ولكن الشيخ كان يرضى ذلك منه ويشكره له، ويسأل عنه إذا غاب، ويستدنيه إذا حضر. فإذا عادت القافلة إلى وطنها كان الحاج مسعود من خاصة الشيخ والممتازين بين ذوى مودته. ومنذ ذلك الوقت لم يفارق الحاج مسعود شيخه في سفر ولا في إقامة، ولم يتخلف عن مجلس من مجالسه، ولم يعتمد التخلف عن الصلاة التي كان يقيمها الشيخ، إنما كان يكره على ذلك إكراهاً في بعض الأحيان، فيؤدى الصلاة كما يستطيع وفي نفسه شيء من حزن لأنه لم يؤدها مع الشيخ. وكان الله قد منحه ذاكرة قوية رائعة، فلم يكن يسمع شيئاً إلا حفظه، ولم يكن يتحدث إليه بشيء إلا وعاه، وهو من أجل ذلك قد حفظ القرآن كله لكثرة ما كان يستمع لتلاوة القرآن، وحفظ كثيراً من الحديث لكثرة ما كان يستمع إلى الشيخ وهو يروى الحديث، وحفظ كل ما كان الشيخ يبتهل به إلى ربه من دعاء، بل حفظ أكثر من ذلك: حفظ أطرافاً من علوم الدين ومن الفقه والتصوف والكلام خاصة، لكثرة ما سمع الشيخ يتحدث في هذه الألوان من العلم إلى الذين كانوا يفدون ويقيمون عنده من علماء القاهرة. وعرف الشيخ منه ذلك فأكبره، وازداد عنه رضا ربه ثقة وإليه اطمئنناً، ولكنه قال له ذات يوم: إنك تحفظ ما تسمع من القرآن والحديث، وإنى أخشى عليك أن تعيد ما تحفظ فتخطئ فيه؛ فالخير ألا تطمئن إلى حفظك حتى تعيد ما حفظت على الذين يعود القرآن ويحسنون العلم؛ ذلك أحرى أن يعصمك من خطأ قد تضطر إليه، ولكنى لا آمن عليك عواقبه. هنالك لجأ الحاج مسعود على شيخ من حفاظ القرآن فتلا عليه كتاب الله كله مرة ومرة، حتى استيقن أنه حافظ مجود، ثم لم يكن يسمع من الشيخ حديثاً يرويه عن النبي حتى ينتظر بالشيخ ساعة يخلو فيها إليه، فإذا أمكنته الفرصة قال للشيخ وعلى ثغره ابتسامة تشرق عن مثل اللؤلؤ، وفي عينيه دموع تترقق ولا تكاد تنهل: الست قد حدثتنا بكذا وكذا عن رسول الله ﷺ فإذا قال الشيخ: بلى. قال الحاج مسعود: أوافق أنت بأنى قد وعيت عنك؟ فإذا قال الشيخ: نعم، قال الحاج مسعود: أفأستطيع أن أتحدث به إلى الناس؟ فإذا قال الشيخ: نعم، قال الحاج مسعود: ومع ذلك فلن أفعل إلا مضطراً؛ فما أنا بالمعلم، وما ينبغي إلى أن أكونه، وإنما أنا المتعلم والمتعلم دائماً.

وكان الحاج مسعود قد ورث عن أبيه تجارة واسعة ضخمة في غلات الأرض. فلم تكن أرض الإقليم تنبت حبة إلا صارت من الحقل إلى الحاج مسعود، ثم تفرقت بعد ذلك من مخازن الحاج مسعود إلى من صيرها الله له رزقاً من أهل المدينة أو من أهل الإقليم بل من أهل الأقاليم

البعيدة. ولم يكن أحد يمر بمخازن الحاج مسعود فى ساعة من النهار إلا رأى أمامها جماعات لا تكاد تحصى من الحمر والإبل، هذه يوضع عنها ما تحمل قد أقبلت به من المتاجر والحقول، وهذه توقر بالأحمال لتنتقلها إلى المتاجر والدور ولتنتقلها إلى السفن بوجه خاص. فقد كان للحاج مسعود ما يشبه أن يكون أسطولاً نهرياً. وكانت سفنه المملوكة له والتي كان يستأجرها من غيره ما تزال مصعدة فى النيل نحو الصعيد أو هابطة فيه نحو القاهرة وكان الحاج مسعود مصدر رزق لخلق كثير من أهل المدينة والقرى المجاورة. فما أكثر الذين كانوا يعملون عنده بأيديهم كيلا ووزناً وتعبئة وسعيًا بالتجارة هنا وهناك، وما أكثر الذين كانوا يأجرونه من حر وإبل لينقلوا عنه وينقلوا إليه. وكان الناس لا يرون قطاراً من الإبل يحدو به حاد أو قافلة من الحمر يسوقها سائق وهو يتغنى بهذا اللفظ القروى الطريف "يا دواب يا دواب" إلا قالوا: هذه إبل الحاج مسعود أو هذه حمر الحاج مسعود.

وكان الحاج مسعود يسكن داره فى طرف من أطراف المدينة يوشك أن يكون قرية من قرأها، بل تشوك الدار نفسها أن تكون قرية صغيرة من القرى. وكانت هذه الدار قد نمت نمواً مطرداً. ورثها الحاج مسعود عن أبيه الحاج عمران واسعة فسيحة الأرجاء، لا تكاد ترتفع فى السماء إلا قليلاً، وورث من حولها أرضاً منبسطة لا يكاد الطرف يبلغ مداها. فلما رزق ابنته الأولى فاطمة خطر له أن يبنى عن يمين داره الموروثة داراً جديدة صغيرة لهذه الصبية التى لم تتم العام الأول من حياتها، وقال لامرأته وهو يضحك: إن مد الله لهذه الصبية فى العمر فستتزوج، وما أحب أن تنتقل إلى زوجها فتصبح غريبة عنده، وإنما أحب أن ينتقل الزوج إليها وأن تستقبله فى هذه الدار التى تملكها، فلا تحس أنها تبع له أو ثقل على أسرته، ثم رزق ابنته الثانية حفيظة، فاتخذ لها داراً إلى جانب دار فاطمة وقال لامرأته مثل ذلك القول، وقال للناس مثل ذلك القول. ثم رزق بعد ذلك خديجة ومنى، فاتخذ لهما دارين عن شمال داره كما اتخذ لأختيهما دارين عن يمينها. ونظر ذات يوم فإذا أبنيته قد كادت تستغرق ما كان يملك من الأرض فى طرف المدينة، وإذا هى توشك أن تستقل عن المدينة استقلالاً، وإذا هى بناء ضخم ينبسط أمامه فناء عريض قد قامت فيه بعض الأشجار متفرقة، وامتد له عن يمين وشمال جناحان طويلان على شيء من ضخامة. فلما رأى هذا كله أعجبه واتخذ من حوله سوراً، وإذا داره أشبه شيء بالحصن ذى الأسوار المرتفعة فى السماء تفتح أبوابها مع الصبح ليخرج منها الناس والإبل والماشية، ثم تغلق إذا تقدم الليل على من لجأ إليها وما ألقى إليها من الناس والماشية. فلا غرابة فى أن يفكر على أبو خالد فى أن يصهر إلى الحاج مسعود كما قدر الشيخ الكبير. فقد كان شرف هذا الرجل ومكانه من الشيخ وتجارته الواسعة وثروته العريضة ودوره هذه المنبثة من وراء السور كأنها الحصن، وهذا الخير الكثير الذى يغدو منها مع مطلع الفجر ويروح

إليها عند مغرب الشمس، كان هذا كله مغرياً لعلّ بالإصهار إلى الحاج مسعود، فكيف وقد سمع على أن صغرى بناته جميلة رائعة الجمال لم تبلغ الرابعة عشرة من عمرها بعد؛ وليس من البعيد أن يكون على قد وجد في ضميره الخفى على شيخه بعض المودة حين صرف عنه مسعوداً وحذره من الإصهار إليه. ولكن هذا ظن نستغفر الله منه فإن بعض الظن إثم، إنما الشيء الذى لا شك فيه هو أن شيئاً من فتور قد سرى فى اجتهد على كما تسرى النار الخفية الضئيلة فى المقادير الضخمة الهائلة من الهشيم. وظن آخر نستغفر الله منه لأن بعض الظن إثم، وهو أن شيئاً من الفتور الخفى جداً، قد أخذ يسرى فى حب على لابنه خالد وفى عطفه عليه. ولو أمكن أن يحسد الآباء أبناءهم لجاز أن تكون شرارة ضئيلة جداً من الحسد قد وقعت فى قلب على حين سمع الشيخ يرغب الحاج مسعوداً فى صهر خالد هذا الفتى الذى اتخذ له زوجاً فأضاعت عقلها جنية البيت، والذى لم يكد يكسب حياته إلا منذ وقت قصير. والشيطان خبيث بغيض يندس إلى القلوب الطاهرة وإلى النفوس الزكية فيلقى فيه شيئاً من فساد، إلا أن يعصم الله هذه النفوس وتلك القلوب من نزغات الشيطان. ولعله قد عصم منها نفس على الزكية وقلبه الطاهر الذى ملئ علماً ودينياً. ولكن الشيطان وقح لا يعرف الحياء، ملح لا يكره أن يتقل على الناس بما يوسوس فى صدورهم من الشر الذى يغرى بالإثم ويورط فى سوء الظن، يلتمس لذلك حيلة لا تحصي، يوسوس بذلك مباشرة فى صدور الناس أحياناً، ويجرى به السنة الأعداء والحساد والجهال من الأصدقاء أحياناً أخرى. وهو قد فعل ذلك مع على، لم يجترأ أن يواجه حبه للشيخ وثقته به، وعطفه على خالد وأمله فيه، ففس من أصحابه من قال له مازحاً بعد تلك الليلة التى عبث الشيخ فيها به: لقد قسا عليك الشيخ أمس وصرف عنك خيراً كثيراً. ومع ذلك فمن يدري، لعل الشيخ إنما صرف عنك شراً كبيراً، فإن للأولياء أمثاله أسراراً لا يفهمها أمثالنا، ومع ذلك فإنى أرجو ألا يكون نصيب هذه الصبية إن زفت إلى خالد كنصيب تلك المرأة البائسة التى لم تكد تقيم معه أعواماً حتى مسها لطف الله. ولم يكد على يسمع هذا الكلام حتى ثار وفار وهم أن يبطش بصاحبه لولا بقية من حلم؛ فقد استباح هذا الرجل لنفسه أن يجرو على الشيخ، ومن دون الجراءة على الشيخ أهوال، واستباح هذا الرجل لنفسه أن يعرض بخالد، ولولا أن الله عز وجل قال: ﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ رَبَّكَ لَمَنْ عَزِيزٌ أَلْمُورِ﴾ ﴿٤٣﴾ لما رجع هذا الرجل إلى أهله موفوراً. ولكن لا اقل من أن تنقطع الصلة بين على وبين هذا الرجل الذى اتخذ الشيطان مطية إلى الفساد. وقد كان ذلك، فأعرض على عن صاحبه بعد أن زجره زجراً عنيفاً، وأقسم لا يكون بينه. بينه سبب منذ اليوم.

ومن المحقق أن علياً قد عنى بتجارته عناية شديدة، عناية لم تغن عنه شيئاً، ولكن على المرء أن يسعى إلى الخير جهده، وعنى ببنيه وبناته وبنسائه، وأحب داره حباً شديداً وأى غربة

فى ذلك، فالمؤمن حقًا مكلف أن يصل الرحم، ويحسن القيام على أهله وداره وبنيه. والقيام على الأبناء وعلى ذوى القربى وأولى الأرحام واجب يعاقب المقصر فيه ويثاب الناهض به. وهو بعد هذا صدقة يضاعف الله جزاءه لمن يؤدونه على وجهه. ومن الجائز أن تكون عناية على بتجارته وقيامه على أهله وسعيه فى إصلاح أمره، كل ذلك قد يضطره إلى قليل من التقصير فى ذات الشيخ، وإلى التخلف القليل عن بعض مجالسه، ولكن الشيخ يعرف أمره كله حق المعرفة، وهو يعذر تقصيره ويعفو عن تخلفه. ومن الجائز أن يصرفه هذا كله عن بعض الرفق بابنه خالد، ولكن خالدًا رجل قد توسط العقد الثالث من عمره؛ فهو لا يحتاج إلى العناية والعطف كما يحتاج إليهما هؤلاء النسوة الضعاف، وهؤلاء الصبية الصغار. وربما كان الحق على خالد أن يعنى بأبيه وإخوته أكثر مما يفعل إلى الآن، ولكنه شاب، وللشباب ضلالة المؤقت، وخالد مغرور بمنصبه الجديد، ولا شك فى أنه سيثوب إلى نفسه، وسيذكر أن حمل أبيه ثقيل، وأنه يستطيع أن يخفف بعض هذا الحمل. أليس يقبض أربعة جنيهاً فى آخر كل شهر! كل هذه خواطر لعل نفس على قد تحدثت بها إلى على حديثاً همساً لا يكاد يسمع! ولكنها تحدثت به على كل حال، فهى خليفة أن تلام. والنفس أمارة بالسوء إلا من رحم ربه. وعلى حريص كل الحرص على أن تتاله رحمة الله؛ فهو يلوم نفسه لومًا عنيفًا، ويجتهد فى العبادة اجتهادًا شديدًا، ويتفق فى غرفة أم خالد ليلة قائمة هائمة بذكر الله جاهرة بتلاوة القرآن قد طرد عنها لشیطان طردًا، ورد عنها النوم ردًا، حتى إذا صلى على الصبح وشرب القهوة نازعته نفسه إلى الراحة وشيء من النوم، فيتجهم لها ويغلظ عليها ويشد فى تأديبها، ويقسم لا يذوق النوم حتى يذهب إلى متجره ويعود إلى غذائه. فإذا صلى الظهر نام وطلب إلى هناء أن توقظه ليذكر صلاة العصر، قبل أن تقوته. فإذا صلى العصر سعى إلى شيخه فشهد معه صلاة العشاءين وحضر معه حلقة الذكر.

وفى ذات يوم ذهب خالد إلى متجر أبيه بعد صلاة العصر، فرآه جالسًا يدير ذكر الله على سبته تلك؛ فسلم الفتى، ولكن عليًا لم يرد عليه سلامه ولم يرفع إليه رأسه، وإنما ظل مطرقًا يدير ذكره فى أناة، يمد صوته بحروف المد أكثر مما تعود أن يفعل، ويساقط حبات المسبحة فى ببطء متكلف، حتى إذا أدار ذكر الله على سبحته من طرف إلى طرف استغفر الله فأطال استغفاره، وصلى على النبى فأكثر الصلاة عليه، ووهب ثواب هذا كله للشيخ رحمه الله، ثم أدخل سبحته فى جيبه مستأنياً، ثم مسح وجهه بيديه مشهدًا، ثم التفت إلى خالد وهو يقول: ألسنت بخير يا بنى؟ إنى لم أرك منذ أمس. قال الفتى: لقد أمضيت صدر الليل عند الشيخ، وغدوت إلى عملى وجه النهار، وجئت... فقاطعه على رقيقًا به وهو يقول: جئت لترانى، ولتقص على ما كان نبينك وبين الشيخ والحاج مسعود فى خلوتكم أمس؛ فقد أنبئت بهذه الخلوة. قال خالد: نعم. قال على: عفا الله عن الشيخ! فلو كان أبوه حيًا لكنت رابع ثلاثكم أمس. وعفا الله عنك يا بنى! فلولاً

أنك حديث السن لما قرأت فاتحة الخطبة وأبوك غائب. ولكنك رأيت الشيخ يدعوكم فلم تستطع له خلافاً، ولم تفكر إلا في أن تجيب إلى ما دعيت إليه. ولو كنت مكان لانصرفت من عند الشيخ إلى أبي لأبشره بهذه الخطبة، ولكنك انصرفت بالبشرى إلى سليم؛ فقد علمت أنك طرقت بابه عليه حين تقدم الليل. قال الفتى مضطرباً متلعثماً: فإنى لم أجرو على إزعاجك وقد كاد الليل ينتصف، ولم أجرو على أن أباركك بهذا النبأ قبل أن أغدو على عملي. فأما سليم.... قال على مقاطعاً: فليس بينك وبينه من الكلفة مثل ما بينك وبين أبيك! ثم تشهد على واستغفر الله ونهض إلى ابنه فضمه إليه وقبل بين عينيه، وقال: قد سامحتك فليسامحك الله.. متى استطاع الآباء أن يطيلوا المودة على أبنائهم! اذهب يا بنى فقد عفوت عنك. ثم بسط يده فتناولها خالد وقبلها صامتاً وظل في مكانه قائماً واجماً لا يقول شيئاً ولا يأتى حركة. فنظر إليه أبوه ثم اندفع في الضحك وهو يقول: ما قيامك أمامي كالصنم لا تقول شيئاً ولا تأتى حراكاً؟ أمغبط أنت بهذه الخطبة؟ أضربت مع الحاج مسعود موعداً للزواج؟ قال خالد: أما أنى مغبط بهذه الخطبة فما أدري ماذا أقول لك، وإنما موقفى منها كموقفى من تلك الخطبة الأولى: أمر الشيخ الكبير فأطعت، ودعا الشيخ الصغير فأجبت. والله يختار لنا ويلهمنا التوفيق فيما نأتى وما ندع. وأما موعد الزواج فما ينبغى أن نحدده ولم يحل الحول على موت عبد الرحمن، وما كان ينبغى أن نتحدث فيه وأنت غائب. وبعد فإننا لم نحدث أمس أمراً جديداً، ولم نزد على أن ننفذ وصية من الشيخ الكبير كنت بها عالماً. قال على وقد أحس في نفسه شيئاً من الندم لغلظته على ابنه، وكثيراً من الرضا عن طاعة ابنه له ووفائه لحميه القديم - قال علي: بارك الله عليك يا بنى وألهمك التوفيق، وكتب لك الخير فى كل خطوة تخطوها أو عمل تقدم عليه، أقم معى حتى إذا دنا الغروب سعيينا إلى الشيخ فشهدنا معه الصلاة.

قالت زبيدة لزوجها سليم: لقد سمعتك تتحدث إلى خالد أمس بأن أكثر أهل النار من النساء. قال سليم وهو يتكلف الغضب: فقد كنت تتسمعين علينا إذا؟ قالت زبيدة: لا والله ما تسمعت عليكما، ولا احتجت إلى أن أسمع إليكما؛ فقد كان حديثكما عاليًا مرتفعًا، يسمعه من في الدار، ويسمعه من يمر بها في الطريق. كان خالد فخورًا مغتبطًا لأنه سمع هذا الحديث من شيخه فأقبل فرحًا بعيدة عليك، وقبلته أنت راضيًا مسرورًا كأن لك عند النساء ثأرًا، ثم مضيت تفسره وتعلله وتزيد فيه.

قال سليم وهو مغرق في الضحك: وماذا فهمت من هذا كله؟

قالت زبيدة: فهمت أن النساء كافرات للنعمة، جاحدات لجميل، مضيعات للمعروف، تحسنون إليهن فيفرحن ثم يسرع إليهن النسيان! فهن لا يذكرن لكم خيرًا ولا يعرفن لكم جميلًا، وهن مع ذلك ذاكرات للشر حافظات للسيئة، لا يكاد زوج المرأة منهن يؤذيها بالهين أو العظيم من المر حتى تنسى حبه لها وبره بها وما قدم إليها من معروف، وتأخذ بسيئات لا تحصى. فإثمهن الأعظم وجريمتهن الكبرى هي هذا العقوق. وأى إثم أعظم من العقوق وكفران النعمة؟ وهن من أجل ذلك يصرن إلى النار فيؤلفن من أهلها الكثرة الساحقة.

قال سليم وهو لا يكاد يفوق من ضحكه: وهل تتكرين ذلك أو ترتابين فيه؟ قالت زبيدة: لا أنكر شيئًا ولا أرتاب في شيء، وإنى لتأثبة إلى الله من كل ذنب، طالبة عفوه عن كل خطيئة، باذلة ما أملك من الجهد لأبلغ رضاه ورضاك أنت، فإن رضا الزوج من رضا الله، وأنا مع ذلك مشفقة ألا أنجو من النار. قال سليم: اجتهدى، فعسى أن يعصمك الله منها، وأن يجعلك من أهل الجنة. قالت زبيدة وقد أخذت تضحك: فأما أنتم يا معشر الرجال فأقلكم في النار وأكثركم في الجنة؛ لأن الطاعة فيكم فاشية، والمعصية فيكم نادرة، ولأنكم لا تؤذون أحدًا ولا تتقدمون إلى أحد بما يكره، وإنما أنتم خير خالص لا يمازجه الشر، وعسل خالص لا يشوبه العلقم. فأما أن تسوموا نساءكم سوء العذاب وأن ترهقوهن من أمرهن عسرًا، فإنما ذلك تأديب لهن. تستوفون مالكم من حق الطاعة، وتتقربون بتأديبهن إلى الله. وأما أن تمسوا نساءكم على ما يكرهن من الألم والبؤس، وأن تعلقوا على رعوسهن هذا السيف القاطع سيف الطلاق، أن تصوبوا إلى صدورهن هذا السنان الذى ينفذ إلى أعماق القلوب، سنان التزوج بضرة تدخلونها على الزوج في دارها وتتغصون بها حياتها، وتذيقونها ألم الغيرة وشقاء الحسد، وتورطونها في الغدر والكيد والنفاق، فليس عليم من هذا كله بأس، إنما تستمتعون بما أتاح الله لكم من رخصة وبما أتاح لكم من حق. فإن ضاقت

المرأة بشيء من ذلك أو أنكرته أو ثارت له، فهي كافرة للنعمة، جاحدة للجميل، عاصية لله؛ وهي من أجل ذلك صائرة إلى النار مع أمثاله اللاتي يؤلفن الكثرة الساحقة من أهلها.

قال سليم وقد أخذ يثوب إلى شيء من الجد والهدوء: ما رأيت كالיום جدلاً ولا شغباً. من أين لك هذا العلم كله؟ ومن أين لك هذه الفصاحة كلها؟! وما هذا الشيطان الذي استقر في قلبك وأجرى لسانك بهذا المنكر من القول؟!

قالت زبيدة وكأنها لم تسمع لزوجها: وأما أن يخون الرجل منكم زوجه أو أزواجه، فيعدو على غير حقه، ويأثم في غير حاجة إلى الإثم، فخطيئة عسى الله أن يغفرها لكم ما دمت تصلون وتصومون وتستغفرون؛ والاستغفار يمحو الذنوب، ويعصم أصحابه من النار. ألا ترون أنكم تسرفون على أنفسكم وعلى الناس حين لا تكتفون بتدبير أمور دنياكم على ما تحبون، وإذا أنتم تدبرون أمور الآخرة على ما تشتهون أيضاً؟! وهم سليم أن يتكلم وقد أخذه شيء من العنف، ولكن زبيدة مضت في حديثها وقالت في ابتسامة ساخرة مغرية معاً: حدثني عن نفيسة، أمن أهل الجنة هي أم من أهل النار؟ ولم يكده سليم يسمع هذا السؤال حتى سكت غضبه وانكسرت حدته وظل واجماً لا يكاد يجيب. فلم يكن يقدر أن هذا الحوار الذي استأنفته امرأته يريد أن ينتهي إلى نفيسة. وما شأن نفيسة وهذا الحديث الذي كان يفاوض فيه أخاه وصديقه أمس؟ قالت زبيدة: إن نفيسة لم تختار لنفسها صورتها البشعة ومنظرها القبيح، ولم تدع خالد ليكون لها زوجاً، بل لم تعرفه إلا حين أدخل عليها أو أدخلت عليه. ثم هي لم تمنح إحدى ابنتيها جمالاً رائعاً، ولم تمنح الأخرى قبلاً مخيفاً. ثم هي لم تؤذ زوجها في نفسه ولا في بيته، ولم تخالف عن أمره ولم تسمعه ما يكره من القول، ولم تكلفه ما لا يطيق من أمر. ثم هي لم تدع المرض إلى نفسها، كما أنها لم تدع القبح إلى وجهها. فهل تستطيع أن تتبئني فيم كان إقبال خالد عليها، وفيم كان إعراضه عنها، وفيم كان تعذيبه لها، ثم فيم كان هذا الطلاق، وفيم كانت هذه الخطبة؟ هنالك دهش سليم لعلم زبيدة بأمر الطلاق وبأمر الخطبة، فقال لامرأته مترقفاً ومن أنباك بأن خالد طلق امرأته، أو من أنباك بأنه هم أن يتزوج امرأة أخرى؟ قالت زبيدة: أنبأني بذلك من أنبأني، ولكنه حق لاشك فيه. وإن خالدًا لأعقل وأرفق بنفسه من أن يهجرها هجرًا غير جميل كما يفعل الآن، فيقرها في طرف من أطراف الدار ويقيم على خدمتها وخدمة ابنتيها وأمها مولاته نسيم، ثم لا يزور هؤلاء النسوة إلا زيارات متقطعة. وهول أعقل وأرفق بنفسه من أن يأتي هذا كله من الأمر دون أن ينبئها بأن الصلة بينها وبينه مقطوعة، وبأن الحبل بينها وبينه مبتوت. قال سليم: فإنك تعلمين أن نفيسة لا تصلح له زوجاً، ولا تقدر على شعرة الرجال. فما ذنب خالد إن اعترف بالحق الواقع؛ وهل ترين له أن يعيش مع مجنونة أو أن يفرض على نفسه حياة الرهبان؟ قالت: لا أدري! ولكن جنون نفيسة لم يأتها من قبل نفسها، وإنما جاءها من هذا الزواج الذي لم ترده، ومن هذه

الظروف التي لم تخلقها. ورحم الله أم خالد إذ قالت لزوجها: إنه إن أتم هذا الزواج فلن يزيد على أن يغرس في داره شجرة البؤس. لقد غرست شجرة البؤس فمت وأتت ثمرها بشعًا خبيثًا. امرأة ترزأ في زوجها وابنتها معًا، ثم ترى ابنتها وقد اصطلح عليها المرض وهجر الزوج والحرمان. فأنت تعلم أن نفيسة ليست ميسرًا عليها في الرزق. ولست ألوم أحدًا، ولكنها فقدت ثروة أبيها، وتفرقت ثروة على في أسرته الضخمة، وخالد لا يرزقها إلا كما يستطيع.

ثم لم يكفها هذا كله، فقد رزقها هذا الزواج السعيد صبيتين كان من حقهما أن تتشأ في النعمة، فهما تتشآن في البؤس بين أم مريضة وجدة محزونة ومولاة سوداء تقوم من أمرهما بما تستطيع القيام به، وأب ينفق الأيام، وقد ينفق الأسبوع، دون أن يراهما. كل هذا لا يكفي، فلا بد من أن يتزوج خالد، ومن أن يتخذ لأمهما ضرة، ومن أن يكون له من هذه الضرة بنون وبنات يشاركونهما في حب أبيهما وبره. ومن يدري، لعلهم يصرفون أباهما عنهما كل الصرف. حدثني عن نفيسة أمن أهل الجنة هي أم من أهل النار؟ وحدثني عن أمها أمن أهل الجنة هي أم من أهل النار؟ ولا تنس أن نفيسة لا تحسن الصلاة فهي لا تؤدي الصلوات الخمس كما يؤديها خالد، بل هي لم تعد تحسن شيئًا، فقد ثاب إليها حظ من رشد ولكنه ضئيل جدًا لا يكاد يكفي إلا لتفهم عمن يحدثها وتفهم من تتحدث إليه في أيسر الأمور. إنك لم ترها منذ عادت إلينا. وفيما تراها وقد طلقها خالد فلم يبق بينك وبينها سبب؟ أما قبل أن يطلقها وقبل أن يلم بها هذا المرض فقد كنت تحب حديثها وتأنس إلى لقاءها وترغب في زيارتها. كانت زوج أخيك، أما الآن فليست منك في شيء. ولو قد رأيتها لرأيت شرًا عظيمًا. أتذكر كيف كانت تتحدث فتحسن الحديث في لغتها تلك القاهرية. وكيف كانت تداعب فتحسن المداعبة في ظرفها ذاك الذي لا نحسنه نحن في الأقاليم؛ لقد ذهب هذا كله، وأصبحت حياة نفيسة وجدًا كلها. وأصبح صمتها متصلًا مخيفًا. وأصبح صوتها خافتًا لا يكاد يسمع، وأصبح حديثها غامضًا متقطعًا لا يكاد يستوى ولا يبين. لقد أصبحت عاجزة حتى عن أيسر الأشياء. إنها لا تكاد تعرف من العدد إلا العشرة: فهي لا تحسن أن تقول العشرين والثلاثين والأربعين، وإنما تقول عشرين وثلاث عشرات وأربع عشرات. ولست أدري كيف تقول، إذا جاوزت المائة! لقد انتهى بها البؤس إلى هذا كله. وتصور بؤس أمها حين تراها على هذا النحو وحين تضطرب بين فقد زوجها ومرض ابنتها. فأما الصبيتان فلا تدركان من هذا شيئًا، ولكن لهما حظًا من قسوة الطفولة، فهما تعبثان بأمهما وتضحكان من ذهولها وما اضطرت إليه من البله، ولا تحفلان بجديتهما، ولا تكادان تحفلان بنسيم؛ لهنّما لا تفهمان عنها أكثر ما تقول. حدثني عن هؤلاء النسوة من أهل الجنة هن أم من أهل النار؟ ثم حدثني عن خالد وأبيه وعن نفسك. إنكم تصلون وتصومون وتسعون إلى الشيخ وتشهدون حلقة الذكر وتقرءون القرآن وتظنون، أرجو، أن تكونوا من أهل الجنة، ولكنكم ترون هذا البؤس المؤلم وهذا الشقاء

المهلك، فلا تمدون إلى البائسين يدًا، ولا تتألمونهم بمعروف، ولا تكرهون أن يضيفوا إليه بؤسًا جديدًا وشقاء طريقًا. قالت ذلك ثم لم تستطع أن تمضي في الحديث؛ لأن صوتها انحطم في حلقها، ولأن دموعها انهلكت على وجهها غزارًا. وكان زوجها يسمع لها في صمت متصل يقطع بين حين وحين بهذه الكما: لا إله إلا الله ولا حول ولا قوة إلا بالله. فلما رأى زوجها تمضي في البكاء ولم يستطع أن يثبت لها لهذا الحزن، ترك امرأته وخرج من الدار، لا يريد وجهًا يعينهن وإنما يفر من منظر لا يستطيع له ثباتًا. ثم عاد إلى أهله بعد ساعة. فرأى امرأته قد أصلحت من شأنها وانصرفت إلى أمر بيتها تدبر وتقو عليه، وهم سليم أن يتحدث إلى امرأته حديثًا غير الذى كانا فيه، ولكنها لم تستجب له، وإنما استأنفت حديثها من حيث قطعتة أو من حيث قطعة عليها البكاء. قالت: أما أنا فلا أحسن صلاة ولا صومًا ولا عبادة، ولكن الله يرى ما أتى من الأمر سرًا أو علانية. وهو يرانى عند نفيسة فى كل يوم مصبحة حينًا وممسية حينًا آخر، أواسيها بالقول دائمًا، أواسيها بالدموع أحيانًا. وماذا أملك غير القول والبكاء؛ ثم ابتسمت لزوجها ابتسامة حزينة وقالت له: إن لى إليك حاجتين تستطيع أن تجيبني إليهما، وما أشك أن ستظفر على ذلك بثواب الله. قال سليم: وما ذاك؟ قالت زبيدة: فأما أولاهما فأن تؤخر زواج خالد إلى أبعد أمد ممكن، فلعن الله أن يرد إلى نفيسة صحتها فتحتمل هذه المصيبة خيرًا مما تحتملها الآن. قال سليم: فإن خالد لن يتزوج قبل أن يحول الحول على موت حميه، وما زال بيننا وبين ذلك شهور. قال زبيدة: أخشى أن تكون محنة نفيسة فى صحتها أطول من ذلك. قال سليم: وما حاجتك الثانية؟ قالت زبيدة أن تبر بنفسية وتشعرها دائمًا لأننا لم نكن عابثين حين خطبنا ابنتها جلنار لابننا سالم. قال سليم: وهى تشك فى ذلك؟ قالت: لا أدري ولكن هذا الحديث يرضيها فيما أعتقد، ولعله أن يفتح لقلبها البائس فرجة من أمل. قال سليم: فسنزورها معًا إذا كان الغد. قالت زبيدة: وحاجة ثالثة ليس بينها وبين نفيسة صلة. قال سليم: وما ذاك أيضًا؟ وهمت زبيدة أن تجيب، ولكن العبرة حبست صوتها فانصرفت من الحجرة مسرعة، وتبعها زوجها مسرعًا حتى أذكرها فضمها إليه وجعل يقبل رأسها وسألها: ما حاجتك؟ وماذا تريد؟ أفصحى ولك عهد الله أن أجيبك على ما تبغينه إن كان ذلك فى طاقتي. قالت: لا تدخل على ضرة، فإن هممت بذلك فطلقنى وارددنى إلى أهلى الفقراء، ولا تمسكنى على كره مني، زوج مرضت عندك فلا تهجرنى مهما يطل مرضي، وما أظنه يطول. هنالك أغرق سليم فى الضحك، وضم امرأته إليه مخلصًا لها عطفًا عليها، وهو يقول: إنكن لناقصات عقل ودين.

لم تجر الأمور بين خالد وأبيه على ما كانا يحبان؛ فحياة الناس ليست طوع أيديهم يصرفونها على ما يهون، وإنما تعرض لها العلل والآفات، وتتحكم فيها الحوادث والخطوب التي لا يملك الناس من أمرها شيئاً، أو لا يملكون من أمرها إلا قليلاً، وهى من أجل ذلك تدفعهم إلى مسالك لو يَخروا لما اندفعوا إليها، وتضطرهم إلى أمور لو استطاعوا لاجتنبوها. فلم يكن فى يد على أن تصلح تجارته وتنمو وتغل عليه ما ينهض بحاجة أسرته الكبيرة. ولم يكن فى يد خالد أن يجد من راتب- الذى كان يرى فى ذلك الوقت ضخماً على ضآلته - ما يمكنه أن يحمل عن أبيه بعض أثقاله. ثم لم يمكن فى يجد أحد من الرجلين أن يمنع هذه الأسرة الضخمة من الحاجة إلى ما يقيم أودها من طعام، ومن حاجة إلى ما يستر أجسامها من لباس، ومن الحاجة إلى أن تحتفظ ولو بشيء ضئيل من مكانا الاجتماعى فى المدينة. فلم يكن بد إذاً من أن ينهض على بهذه الحقوق كلها، وقد حاول الرجل فلم يستطع، وجد فى إصلاح أمره فلم يجد على إصلاحه سبيلاً. فلجأ على الاستدانة، مقتصدًا فيها ما وسعه الاقتصاد، مؤملاً أن يجعل الله له فرجاً من حرج ومخرجاً من ضيق، مجتهداً فى تجارته، ولكن تجارته كانت مجتهدة وهى أيضاً فى أن تسلك طريقاً معاكساً لطريق صاحبها، مجتهداً فوق كل شيء فى صلاته وعبادته وتوسله إلى الله أن يضع عنه هذا الإصر الذى يتقله، وأن يرد إلى خير ما كان فيه من أيام السعة والرخاء. ولكن أبواب السماء كانت كأنما أغلقت من دونه، أو كأن الله يسمع دعاءه ويجيبه إلى خير مما كان يطلب فقد كان يطلب دراهم ودنانير، يؤدى بها بعض دينه، ويشتري بها لبنيه وبناته وأزواجه الغذاء والكساء والحذاء. ولكن الله كان يقبل صلواته ويسمع دعواته، ويدخر له بهن قصوراً فى الجنة على هذه الأنهار التى يجرى فيها ماء لذة للشاربين، ويجرى فيها اللبن والعسل والخمر، ويقام عليها من القصور ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. وقد انتهى الأمر بعلى إلى أن أصبح شديد الأمل فى رضوان الله حين يبلغ الدار الآخرة، شديد اليأس من روح الله فى هذه الدار الأولى؛ فلم يزد ذلك إلا اجتهداً فى العبادة والطاعة، ليستكثر من رضا الله عنه، ومما كان يرجو أن يدخر له فى الجنة من نعيم. ولكنه قصر فى التجارة وأهمل أمرها، وأخذ ينظر إلى أمور الدنيا فى شيء من الازدراء والاستخفاف دون أن ينسى نصيبه من متاعها ولذاتها. وقد اجتهد فى أن يحمل نفسه على الرضا بما قسم له، لولا أن بطون بنيه وبناته لم تكن تطمئن إلى الجوع ولا تقنع بالقليل من الطعام، ولولا أن أزواجه وبنيه لم يكونوا يقدرّون أزمته فى تجارته ولا يعرفون من ضيق ذات يده شيئاً. فكانوا يطلبون ويلحون فى الطلب، فإذا قصر الرجل فى تحقيق آمالهم استحال بيته إلى جحيم لا يطاق ولا يمكن الصبر عليه. وكثيراً ما كان الرجل يفرع إلى المساجد ومجالس الشيوخ، يرى الناس أنه يبتغى بذلك العبادة والطاعة، ويرى هو أنه

يفر من أزواجه وبنيه وإلحاحهم عليه فيما يريدون وما لا يطيق من الأمر. وقد انتهى ذلك بعلى إلى شيء من سوء الخلق لوحظ عليه في أحاديثه وسيرته مع الناس. ولكن الناس كانوا يلتزمون له المعاذير لما يرون من إدبار الأمر عنه وإلحاح الكساد عليه.

ولم تبخل الظروف عليه بصديق السوء الذى يحرضه على ابنه خالد ويغريه به ويسأله: كيف تشكو الضيق وتتعرض للحر والبرد وخالد موظف يتقاضى أربع جنيهاً في كل شهر غير ما يمكن أن يصل إلى يده من ذوى الحاجات؟! فلا تصدق أن موظفاً يكتفى براتبه الذى يقبضه في كل شهر، ويقضى لناس حاجاتهم دون أن يأخذ على ذلك أجراً. إن خالدًا لقادر إن شاء على أن يتحمل عنك بعض أعبائك، ويسد بعض خلتك، وينهض على أقل تقدير بحاجات امرأته وابنتيه.

والواقع أن خالدًا كان يبذل أكثر ما يستطيع أن يبذله، فقد كان يؤدي إلى أبيه آخر الشهر أكثر راتبه لا يستبقى لنفسه إلا رבעه، وكان يرى أن في ذلك أداء لحق أبيه عليه ونهوضًا بحاجة أهله الأذنين. ولكن أباه قال له ذات يوم: أنفق على أهلك يا بنى فإنى لا أجد ما أنفق على أهلى. وحسبك أنكم تقيمون فى دارى لا تؤدون على ذلك أجراً. وقد صعق خالد لهذا القول الذى لم يكن ينتظر أن يسمعه من أبيه لما كان يعرف من حبه له وبره به، ولم يكن ينتظر أن يسمعه لما كان يعلم من أدائه للحق ونهوضه بالواجب. فلما سمع مقالة أبيه لم يحر جواباً. فأعاد أبوه عليه مقالته مرة ومرة. قال الفتى: ومن أين أنفق على أهلى وأنا أؤدى إليك أكثر راتبي؟ قال الشيخ: لا أدري؛ ولكن أنفق على أهلك فإنى لا أجد ما أنفق على أهلى. قال الفتى: سأؤدى راتبي كاملاً كان آخر الشهر، قال الشيخ: وأين يقع هذا الجنيه الذى تحتجزه لنفسك مما أريد؟ قال الفتى: فإن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها.. قال الشيخ: صدق الله العظيم فإن الله لا يكلفنى إلا ما أطيق، ولست أطيق أن أنفق على أهلك. قال الفتى: فإنك لا تتفق على أهلى، وإنما أنفق عليهم بما أؤدى إليك من راتبي. ففقهه الشيخ فقهة كلها غضب وقال: فإنك تمن على بما تؤدى إلى من هذا المال القليل كأنى لم ألدك، ولم أربك، ولم أزوجك، ولم أنفق عليك وعلى أهلك إلى أمس القريب، إنى لا أريد منك ما لا ولا معونة، ولكن تحولنى وحول أهلك إلى دار أخرى، وأنفق على نفسك وعليهم براتبك إن استطعت إلى هذا سبيلاً. قال الفتى محزوناً: فإنى لا أمن عليك شيئاً. ولا أجد من نعمتك قليلاً ولا كثيراً، ولكنى لا أستطيع إلا ما عرضته عليه، فسأؤدى إليك راتبي كاملاً. قال الشيخ وقد ملكه غضب مجنون: لا أريد منك ما لا، وإنما أريد أن تتحول بأهلك عني، فحسبى من عندى من العيال وانصرف عني الآن، فإنى أخشى أن ينطق لسانى بما أكره.

وخرج الفتى محزوناً كئيباً لا يدري ماذا يصنع، ولكنه نظر فإذا هو يطرق باب صديقه وأخيه سليم. ولم يكده يلقى صديقه حتى قال له هذا فى لهجة قد امتزج فيها الغضب والحنان: ما

رأيت كاللوم رجلاً يدخل على الناس بما يكرهون! ألقيت بهذا الوجه أحدًا فى طريقك إلى هذه الدار؟ قال خالد: وما ذاك؟ قال سليم: وجه مظلم، وجبهة مقطبة، وشفتان تمتدان شبرين إلى أمام. أى كارثة ألمت بك؟ أترك قد أوسقت سفينتك بنا فغرقت فى طريقها إلى المدينة؟! وكاد خالد يضحك لهذا العنف الرحيم، ولكن سليماً مضى فى تأنيبه وقد أخذ صوته يزداد قسوة، وأخذت لهجته تزداد حدة، فقال: أمسك عليك شرك أيها الرجل، واحفظ على نفسك غيبها، ولا تجعل من وجهك للناس كتاباً مفتوحاً يقرءون فيه من أمرك ما يشاءون. ليكتتب قلبك ما أردت الأحوال أن يكتتب وليبتئس ضميرك ما شاءت الحوادث أن يبتئس، ولكن ليكن وجهك مستوى المنظر فى أوقات الشدة والرخاء! فليس يعنى الناس ما يصيبك من خير وشر، وإنما أنت تتقل عليهم حين تلقاهم بوجه عابس إن تكررت لك الدنيا، وحين تلقاهم بوجه باسم إن ابتسمت لك الأيام. تتقل عليهم وتغرى شرارهم بالشماتة بك إن أصابك الضر، وبالوجد عليك والحسد لك إن أصابك ما تحب.

قال خالد وقد أخذ وجهه المنقبض ينبسط، وأخذت شفتاه الممدودتان تعودان إلى مكانهما سواء، بل أخذت تفرق بينهما ابتسامة يسيرة فيها شيء من رضا وكثير من حزن، قال خالد: ما أدرى لم لا تصطنع مهنة الخطباء والوعاظ! فإنك لتحسن القول، وتحسن النفوذ إلى دوائر النفوس. قال سليم وهو يضحك: بل أحسن الإنباء بالغيب أيضاً! فقد كان بينك وبين أبيك شر منذ اليوم، أليس كذلك؟ قال خالد: بلى. قال سليم: فإنه ينقم منك قلة ما تمنحه أن تسمع منه. قال خالد: هو ذاك قال سليم: وقد قمت منه مقام الصبى الذى لا يعرف كيف يجيب، ثم انصرف عنه مبتئساً مكتئباً، فأسرعت إلى لتشركنى فى ابتئاسك واكتئابك، وتجد عندى تسلية وعزاء. قال خالد: لله أنت! لقد كفيتنى مؤونة الحديث. قال سليم: اجلس يا بنى ورفه عن نفسك، فالأمر أيسر مما تظن، ثم ضرب إحدى يديه بالأخرى وهو يصيح: أرسلنى إلينا قهوة يا أم سالم وأقبلنى إن شئت، فابسمى لصهرك، فقد عبست له الحياة. وأقبلت زبيدة ساخطة متضاخكة معاً، تقول لزوجها: أما تتفك ترفع صوتك بكل شيء، وتشرك الناس معك فى كل شيء؛ لقد كنت تلوم خالدًا لأنه يجعل وجهه كتاباً مفتوحاً يقرأ فيه الناس من أمره ما يشاءون، فهلا خافت بصوتك وقصرت نجواك على نجيك؛ فليس كل الناس يحسن قراءة الوجوه، ولكن أكثر الناس يحسنون الاستماع لك والفهم عنك إذا رفعت صوتك بكل شيء. قال سليم وهو يضحك لامرأته: ما رأيت أطول ولا أحد من هذا اللسان! قالت زبيدة: إنه لسان امرأة من أهل النار. وأعاد الزوجان على خالد حوارهما الذى قصصناه آنفاً، فضحك له ثلاثتهم وهم يشربون القهوة.

فلما انصرف زبيدة لبعض شأنها قال سليم لأخيه: اعذر أباك؛ فإن عبئه ثقیل، وموارده أضيق من أن تعينه على النهوض به، وأعنه إن استطعت إلى معونته سبيلاً. قال خالد: أما أن

عبئه ثقيل فهذا حق، ولكنه هو الذى خلق لنفسه هذا العبء الثقيل. ما حاجته إلى هؤلاء الضرائر اللاتى يكلفته من النفقة ما لا يطيق ويجعلن داره جحيماً، وما حاجته إلى هؤلاء الصبية الذين ينبتون فى الدار كما ينبت العشب على شاطئ القناة؟ قال سليم: لثمة فيما بينك وبين نفسك ولكن أعنه. فالأمر الواقع هو أن لديه ثلاث زوجات كلهن ولود. قال خالد: وكيف أعينه بأكثر مما أفعل وأنا أودى إليه معظم ما أقبض آخر الشهر؟!.. وقد عرضت أن أودى إليه راتبى كاملاً فلم يقبل منى، وطلب أن أتحوّل عنه بأهلي، فحسبه من عنده من العيال. قال سليم: وقد انتهى بكما الأمر إلى هذا الحد؟ قال خالد: ولولا صرفنى فانصرفت لتجاوز الأمر هذا الحد. فأطرق سليم ساعة ثم رفع رأسه وقال فى صوت هادئ: فإن سأقترضك دنائير تدفعها إليه من يومك، وتؤديها إلى متى استطعت. قال خالد: ما جئت لهذا. قال سليم: فقد أخطأت، وكان يجب أن تجيء لهذا؛ فإن أباك يعانى ضعيفاً يجب أن نجد له منه مخرجاً، فادفع إليه هذه الدنائير من يومك، فإذا كان الغد فسأدفع إليه مثلاً؛ فإن له على مثل ما له عليك من الحق. ثم نهض إلى صندوق ففتحه، وإلى درج صغير فى الصندوق فاستخرج منه ذهباً وضعه فى يد خالد، وخالد صامت لا يقول شيئاً، لأنه لا يجد ما يقول. ثم استأنف سليم حديثه فقال: ولست أدري كيف تدبر أمرك، ولا كيف تعيش بهذا الراتب الذى تقبضه آخر الشهر والذى يستكثره الناس وأراه ضئيلاً لا يقوم بمثل نفقتك. قال خالد: ماذا تريد أن أصنع؟ قال سليم: تصنع كما أصنع أنا وكما يصنع غيرى من الموظفين. قال خالد: وماذا تصنعون؟ قال سليم: نأخذ من الناس أجر ما نؤدى إليهم من خدمة. قال خالد: فإنها الرشوة إذاً. قال سليم: سمها أنت الرشوة، فأما أنا فأسمى بعضها أجرًا مستحقاً وأسمى بعضها الآخرة هدية مبدولة. قال خالد: فإن الأسماء لا تغنى عن الحق، فإنكم تتقاضون أجركم على ما تعملون آخر الشهر، فما تأخونه من الناس لا يحل لكم، لأنه الرشوة لا أكثر ولا أقل. قال سليم: يحل لنا أو لا يحل، هذا آخر شيء نفكر فيه. جيب أن نعيش قبل كل شيء، والراتب الذى نقبضه لا يمكننا من أن نعيش. ونحن لا نستكره الناس على ما يضعون فى أيدينا من نقد وما يحملون إلى دورنا من عروض وإنما هم يفعلون ذلك طائعين. ويسوءهم أن نرده عليهم. وهبك قترت على نسيم مولاتك فى الرزق ومنحتها من الطعام أقل مما يقيم أودها أفتلومها إن سرقت لتشبع من جوع. قال خالد. فعلى ألا أضطرها إلى السرقة قال سليم: فعلى الحكومة إذاً ألا تضطرنا إلى قبول الرشوة. وإلى أن تأجرنا الحكومة أجرًا حسنًا، لا أرى علينا بأسًا من نستعين على الحياة بما يدس إلينا أصحاب المصالح من المال. قال خالد: فإن هؤلاء الناس يدفعون أجور مصالحتهم مرتين: يدفعونها حين يؤدون الضرائب، ويدفعونها حين يؤدون إليكم ما يؤدون من المال، وهذا هو الظلم الذى ليس بعده ظلم. قال سليم: يدفعونها مرتين أو مرات، هذا شيء لا يعنيني، وإنما الذى يعنيني، هو أن أعيش أولاً؛ فأما هذا الظلم الذى تذكره فلست أنا الذى أقترفه، وإنما يقترفه الذين يأخذون الضرائب ثم لا يأجرون الموظفين أجرًا يسير لهم الحياة. وهنا

أطرق الرجلان إطراقتين مختلفتين. فأما خالد فقد أطرق إطراقة الذاهل يسمع ويعي، ولكنه لا يقر ما يسمع وما يعي، ولا يحسن مع ذلك أن يرد عليه، وأما سليم فقد أطرق إطراقة الرجل الذى يعرف أنه يأتى إثمًا من الأمر، ويقول منكرًا من القول، ولكنه مع ذلك يلتمس لنفسه العذر مما يأتى ومما يقول، وهو يعيد على نفسه ذلك المثل الذى ضربه للموظفين الذين يضيق عليهم فى الأجر فيرتشون، مثل الخادم التى يقتر عليها فى بالرزق فتسرق لتتقى الجوع. ثم رفع سليم رأسه وقطع هذا الصمت الذى كاد يطول، فقال فى صوت خافت: أيهما شر: رجل يرتشى ليعيش، أم رجل يرتشى ليستكثر من المال؟ قال خالد: كلاهما آثم، ولكن الذى يرتشى ليستكثر من المال أشد إغراقًا فى الإثم وتورطًا فى المعصية. قال سليم: فالحمد لله الذى لا يحمد على مكروه سواه. أما أنا وأمثالي فنرتشى لنعيش، هذه رشوتى قد أتاحت لى أن أقرضك ما تعين به أباك، وأن أعينه من غد. فأما غيرنا.. ثم سكت قليلًا، ثم قال: فأما رؤساؤنا وسادتنا فإن الحكومة تبسط لهم فى الأجر، وتوسع عليهم فى الرزق، وتقوم لهم بأكثر مما يحتاجون إليه، وهم مع ذلك يرتشون لا كما نرتشي، ويأخذون لا كما نأخذ. إنا نأخذ الدرهم والدراهم، ونأخذ الدينار والدنانير، ونأخذ السفط من البن أو الجماعة من رعوس السكر، أو الحقيبة من الأرز، فأما هم فيأخذون أضعاف ذلك وأضعافه. نحن نأخذ ما نأخذ لننفق على أنفسنا وعيالنا. وهم يأخذون ما يأخذون ليشتروا الضياع يضيفونها إلى الضياع. صدقني! إنك لا تملك كما أنى لا أملك إصلاح ما فسد من الأمر، والله وحده القادر على أن يرد الناس أخيرًا أبرارًا، هنالك نهض خالد وهو يتلو قول الله عز وجل: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي﴾. ولكنه لم يكد يبلغ باب الدار حتى كان سليم يجذبه جذبًا عنيفًا، وهو يقول: لقد تركت دنانيرك أيها الأحق، خذها وادفعها إلى أبيك؛ فليس عليك من إثمها شيء. ولو عرفت أنك سترد إلى قلبه الهدوء وإلى نفسه الأمن. وستمكنه من أن يطعم صبية جياعًا ويكسو جوارى كدن يبتذلن، لما ترددت ولا تخرجت.

وبعد فإلى أين تذهب بهذا الوجه الذى كسته الظلمة وعاد إليه الانقباض؟! أقسم لا تخرج حتى تستبدل به وجهًا آخر، ثم جذبه إليه جذبه كادت تخلع عنه جبته.

وما أقبل المساء حتى كان خالد قد لقي أباه مستحييًا ووضع فى كفه الدنانير متأثمًا؛ فابتسم الشيخ ابتسامة فيها خجل كثير، وقال لابنه: أقسم فسنشهد العشائين مع الشيخ.

وأقبل الصبح من غد، فرأى عليًا فى غرفة أم خالد وقد رفع إلى الله كثيرًا من الصلاة والاستغفار والندم، سكب كثيرًا من الدموع؛ لأنه لقي ابنه البر بما يكره، وكان له ظالمًا وعليه متجنيًا، ثم تمنى على أم خالد ألا تضطغن عليه ما قدم إلى ابنهما من مكروه. ثم لا يكاد يفرغ من قهوته حتى يطرق الباب ويستأذن الخادم لسليم. فإذا دخل وحيا وضع فى يد عمه دنانير وهو يقول: معذرة إليك يا عم؛ فلو استطعت لأديت إليك أكثر منها: فأن نفقت كثيرة ونحن مقبلون

على شهر الصوم. قال الشيخ وقد جادت عيناه آخر الأمر ببيع الدمع: وصلتكم رحم يا بن أخي! فقد أعتنتى فى وقت الحاجة إلى المعونة.

ولما انصرف سليم لم يكن على يشك فى أن الله قد استمع لدعائه الكثير وعفا عما أسلف إلى ابنه من مساءة. ولولا ذلك لما ساق إليه هذا الرزق الذى لم يكن يرجوه.

وقال الشيخ ذات ليلة لخاصته مقالته لهم في العام الماضي، وأذنهم بأن سيستعد للحج، وبأن من شاء منهم أن يصحبه فليعد للسفر الطويل عدته، وتقدم إليهم أن يؤذنوا في الفقراء وأوساط الناس بأن عليه نفقة من أراد منهم أن يحج بيت الله ولم يجد ما ينفق. ثم التفت إلى الحاج مسعود وقال ضاحكاً: أما أنت يا مسعود فقاعد هذا العام فقد أتممت حجك السبع. قال مسعود وقد ظهر على وجهه غضب شديد لم يلبث أن استحال إلى حنان رحيم انهلت له دموعه حتى بللت لحيته الكثة - قال مسعود: أغاضب أنت على سيدنا؟ قال الشيخ وهو يغرق في الضحك: غفر الله لمسعود! غفر الله لمسعود! غفر الله لمسعود! قوم يضحكون، وقوم يبكون. إنما قصدت إلى دعابتك يا مسعود، ولو أردت الجد لما تحدثت إليك. هنالك تهلل وجه مسعود ونهض مسرعاً فأكب على رأس الشيخ يقبله وهو يقول: لقد كنت نذرت الله ألا يحج شيخنا الكبير إلا صحبتته. فلما انتقل إلى جوار الله جددت النذر ألا تحج إلا صحبتك، لا يمنعني من ذلك إلا أن أبلغ أرذل العمر وتعجز قدماي عن حملي. فأعاد الشيخ مقالته: غفر الله لمسعود! ثم قال في صوت ملؤه الجد: فأما وقد نذرت هذا النذر فأنت صاحب حجنا منذ الآن، فدبر أمر سفرنا وإقامتنا، وأنفق على ذلك من مالنا فإن فيه سعة. قال مسعود، ومن مالى فإن فيه سعة أيضاً. وقال بعض الحاضرين: أفلا نؤذن علياً بما آذننا به مولانا الشيخ؟ فسكت الشيخ حيناً ثم قال: لا تفعلوا؛ فإن علياً لا يحج العام. وعرف على ما كان من حديث الشيخ إلى أصحابه، ولكنه لم يتأهب للحج، ولم يزر الشيخ إلا لماماً، ولم يخرج مع الناس لوداع القافلة. فلما كان الشيخ في بعض الطريق ذكروا له علياً وتخلفه عن الحج وتقصيره في الوداع، وتلا بعض أصحاب الشيخ قول الله عز وجل ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُوا لَهُ عُدَّةً﴾ كَرِهَ اللَّهُ لِنُعَاظِهِمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ أَفْعُدُوا مَعَ الْفَاعِلِينَ ﴿٤٦﴾ فلما سمع الشيخ هذه الآية ظهر الغضب في وجهه وقال: صدق الله العظيم، ثم أطرق ساعة، ثم رفع رأسه وقال في صوت تحطمه العبرة: لا تتل هذه الآية يا فلان، ولكن اتل قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ الْبَيْتُ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ أما إن أخاكم لا يستطيع إلى الحج سبيلاً. وقد كنتم أحرىء أن تبروه وترفقوا به وتصلوا خيراً مما فعلتم. ثم أطرق إطراقة قصيرة وهو يتلو: ﴿وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾. ثم طال صمت الشيخ وصمت أصحابه، لا يقول الشيخ شيئاً، ولا يجرو أحد من أصحابه أن يقول بحضرته شيئاً. وصاحب المقالة مستخذ قد خفض رأسه حياء، والقوم قلقون لا يدرون كيف يستأنفون ما كان عليه أمرهم من غبطة ورضا. فلما طال عليهم هذا الصمت المخيف اجترأ مسعود فال: سبحانه الله! ثم اتجه إلى الشيخ وهو يقول في صوته المتهدج: ما إغراق مولانا في

هذا الصمت المخيف؟ إنا كغيرنا من الناس نخطئ ونصيب، ولكننا نحسن أن نتوب إلى الله من خطايانا، فلا تعذبنا بهذا الإعراض، مر بما تشاء. فرفع الشيخ رأسه وهو يقول: غفر الله لمسعود! أما فلان - يريد صاحب المقالة - فيغيب عنى وجهه ثلاثة أيام ثم يلقاني إذا صليت الصبح، فعسى الله أن يرضى عنه قلبي. هنالك تتحى صاحب المقالة مستخذيًا لا ينظر إلى أحد ولا يكاد ينظر إليه أحد. فلما انصرف قال الشيخ لأصحابه: لا تهجروا أخاكم، ولكن واسوه وأحسنوا النصح له. أما أنت يا مسعود، فإذا عدنا من حجنا فازفد إلى خالد أهله فإن ذلك سيرفه على على. قال مسعود: سمعًا وطاعة يا مولاي.

ولم تمض على عودة الشيخ وأصحابه من الحج أشهر حتى كانت امرأة خالد قد زفت إلى زوجها، وحتى كان خالد قد اتخذ له في المدينة دارًا مستقلة أقام فيها مع أهله ومن كل مسعود بخدمة ابنته من الرجال والنساء وقد أصبحت دار خالد دار الرغد والخير، لا تتقطع عنها هدايا مسعود إلى ابنته وصهره. وكان مسعود يلم بابنته بين حين وحين، فيوصيها بنفيسة وبنيتها خيرًا، ويلقى إليها في السر أن تبر عليًا وبنيه. فما أكثر ما كانت ترسل "منى" إلى دار على بالطرف والهدايا على علم من زوجها حيًا وعلى غير علم منه في أكثر الأحيان، تهدي مرة إلى هذه ومرة إلى تلك من أزواج الشيخ. والشيخ يرى هذا فلا يهتم له ألو الأمر، حتى إذا كثر ذلك من "منى" خلا إلى ابنه ذات يوم فقال له، يا بني، لا تثقل على أهلك ولا على حميك؛ فإن في بعض ما ترسلون إلى مقنعا. قال خالد: والله يا أبت ما تكلفت شيئًا وما علمت أن امرأتى تكلف شيئًا، وإن الخير لكثير، وإن الرزق بيد الله يؤتيه من يشاء. ولكن عليًا أعاد مثل هذا الحديث على مسعود. فغضب مسعود حتى اضطربت لحيته، ورق مسعود حتى انهلت دموعه، ثم قال لصاحبه. أتريد أن أشكوك إلى الشيخ؟! هالك اضطرب على بعض الاضطراب وظهر على وجهه الخجل وقال: وددت لو يستطيع الشيخ أن ينساني. قال مسعود: هيهات! ليس إلى ذلك سبيل. إنه ليذكرك في كل يوم، وإنه يستحى أن يدعوك. قال على: يستحى أن يدعوني وأستحي أن أزوره! وهو يذكرنى في كل يوم وأنا أذكره في كل ساعة! ما كنت أحسب أن الدهر يفعل بالناس مثل ما فعل به وبى. قال مسعود: لم يفعل بكما الدهر شيئًا، وإنما أنت أسأت إلى الشيخ وأسأت إلى نفسك. إنك لا تحسن احتمال المحنة ولا الثبات للخطب. إن مال الله غاد ورائح، يصبح الإنسان غنيًا ويمسى فقيرًا. وقد عرفت كيف تحتل الغنى فكنت خيرًا جوادًا، تواسى الضعيف، وتطعم الجائع، وتكسو العارى، وتعين على نوائب الدهر. ولكنك لم تحسن احتمال الفقر، فاستحييت وليس فى الفقر حياء، واستخذيت وليس فى الفقر استخذاء. إنك حين تستخفى بفقرك وتتكلف ما تتكلف من الجهد لا تزيد على أن تلوم الله لأنه هو الذى يغنى ويفقر. والله لا يلازم ولا يسأل عما يفعل؛ وإنما نحن الذين يلامون ويسألون عما يفعلون. أتريد أن تسمع لى

وتقبل نصيحتي؟ قال على وهو يتجنب: وما ذاك؟ قال الحاج مسعود: نصلى العصر معاً ثم نسعى إلى الشيخ: فإنك إن استأنفت لقاءه والأنس إلى مجلسه لم تعد إلى مثل ما أنت فيه الآن. ولم يقبل حتى كان على في مجلس الشيخ كدأبه قبل أن تلم به المحنة، وكدأبه في مجلس الشيخ الكبير.

على أن العام لم ينته حتى ألم الموت بدار على فانترع منها امرأة كانت أشوق ما تكون إليه وأزهد ما تكون في الحياة. رد أم نفيسة إلى زوجها عبد الرحمن في الدار الآخرة. وكان هذا الموت آية لعل أثبتت له أن فقله ومحنته لم يغيرا في مكانته في المدينة شيئاً، فقد هرع أهل المدينة كلهم إلى دار على ويواسونه ويشيعون جنازته، يتقدمهم الشيخ. وكان الأسبوع الأول لوفاة هذه المرة الصالحة أسبوعاً حافلاً في دار على، قرئ فيه القرآن كأحسن ما يقرأ في أكثر الدور ثراء وغنى، وأقام الشيخ فيه بنفسه حلقة الذكر مرات. وقال على لنفسه غير مرة: صدق الحاج مسعود! إن الرجل الكريم هو الذى يحسن احتمال الفقر، كما يحسن احتمال الغنى، ولكن علياً منذ ذلك الوقت قطع على نفسه عهداً ليستأنفن حياة أخرى فيها جد كثير، وزهد في اللذات، وانصرف عن متاع الدنيا، وقناعة بما قسم الله له من الرزق.

قالت نفيسة لصديقتها زبيدة وهى تواسيها بين نوحيتين، حين انقطع فجاءة تعددية المعدة، وسكت المأتم ودارت عليهن قوة يشربها فى صمت عميق ودموع منها ما لا يزال يساقط قطرات متقطعة، ومنها ما لا يزال ينهل وابلا غزيرًا، ومنها ما يريد أن يجف لولا قطرة تمده بين حين وحين - قالت نفيسة لصديقتها زبيدة هامسة كأنما تسر إليها شيئاً: لو تعلمين أنى لا أحزن على فقد أمى بمقدار ما أحزن على دفنها فى هذه المدينة من وراء النهر بعيدة عن أبى وأخوى أولئك الذين دفنوا فى القاهر، فهم لم يفترقوا فى الحياة قط إلا هذه الأسفار التى كان يعمد إليها أبى لتجارته، وكانت أمى إذا حدثته كثرة هذه الأسفار وما تقتضيه من فراق، سمعته يقول لها فى أناة: إنما نحن فى هذه الدار على سفر، وسيكون بيننا جوار متصل فى الدار الآخرة إن شاء الله لا تشكين معه بيتاً ولا فراقاً.

قالت زبيدة: وما يحزنك من ذلك؟ لقد التقيا منذ يومين وهما يسعدان الآن بهذا الجوار المتصل الذى طالما تمنياه.

قالت نفيسة وهى تكفكف عبرة أخذت تنهل. قد التقيا! وأنى يكون لهما اللقاء! بل أنى يكون لهما التزاور وأحدهما فى القاهرة والأخرى فى هذه المدينة من وراء النهر والأمد بينهما بعيد!.

قالت زبيدة: قد افترق جسماهما، رقد أحدهما فى القاهرة، ورقد الآخر هنا، ولكن روحيهما قد التقيا فى رضوان الله، حتى إذا كان يوم القيامة التقى الروحان والجسمان جميعاً فى الجنة. بذلك حدثنا شيوخنا وبذلك يحدثنى كلما ذكرنا الموت، وما أكثر ما نذكره!

قالت نفيسة: افترق جسماهما والتقى روحاهما! هذا كلام لا أفهمه ولا أصدقه. ولو كان حقاً لما رأيت أبى فى الليلة الأولى لوفاة أمى وهو يلقي إلى من بعيد هذا الأمر: قولى لهم يدفنوها معى فإنى إليها مشوق، وقد وعدتها بذلك قبل أن أموت. ولو كان هذا حقاً لما رأيت أمى فى الليلة الثانية تلقى إلى هذا الأمر من بعيد: قولى لهم يدفنونى معى فإنى مشوق إليه، وقد وعدنى بذلك قبل أن يموت. أترين لو أن روحيهما التقيا أكانا يطلبان إلى هذا الذى تواعدا عليه قبل أن يموتا؟

قالت زبيدة: وقد أخذ شيء من الخوف الخفى يتسرب إلى قلبها فتسرى له من جسمها كله رعدة خفيفة - قالت زبيدة: أفصدقين الأحلام وتكذبين مقالة الشيخ؟! إن الأحلام كثيراً ما تكذبنا، ولكن الشيخ لا يقول إلا الحق.

قالت نفيسة: أما إنى لا أدرى أيهما يلم بى الليلة إذا غفوت فيلقى إلى هذا الأمر الذى لا أستطيع له تنفيذًا. فكيف لى بنقل أُمى إلى القاهرة وأنا لا أقدر على شيء! وكيف لى بالتحدث إليه أو إلى أبيه فى شيء من ذلك وقد فعلا أكثر مما كان ينبغى أن يفعلوا. قالت زبيدة إليه! إلى من؟ قالت نفيسة: إليه! إنك لتعرفينه. ففطنت زبيدة إلى أنها إنما تشير إلى خالد، وكانت لا تسميه إذا تحدثت عنه، وإنما تشير إليه دائماً بالضمير. قالت زبيدة: قد فهمت سأحدث إليه وإلى أبيه وإلى سليم.

واستأنفت المعددة غناءها الذى كان يمزق القلوب، واستأنف المأتم الرد عليها والبكاء معها، وانهلكت الدمع غزارًا، واضطربت الأصوات فى الحلق، وألمت النوبات العصبية ببعض النائحات فأسرع إليهن سائر نساء المأتم، يهدئن بالقول والعمل، وينضحن على وجوههن الماء. وانصرفت زبيدة من ذلك اليوم وهى تشفق على نفيسة من خطر جديد، وتزعم أن تتحدث إلى زوجها فى نقل هذه المتوفاة إلى القاهرة. ولست أدرى أتحدثت فى ذلك أم لم تجد إلى الحديث فيه سبيلًا، ولكن الشيء المحقق هو أن الليل جعل يخيف نفيسة أشد الخوف كلما مالت الشمس إلى الغروب. وكان هذا الخوف يزداد قوة وعنفًا كلما تقدم الليل. وكان أبغض شيء إلى نفيسة أن تأوى إلى مضجعها مخافة أن يزورها النوم فيزورها معه طيف هذا أو تلك من أبويها، فكانت تدافع النوم بالقهوة تسرف فى شربها إذا أظلم الليل، لا تكاد تفرغ من كأس حتى تعمد إلى كأس أخرى. ثم أشفقت من العزلة التى كان الليل يضطرها إليها إذا هدا من حولها كل شيء ونام من حولها كل إنسان، فكانت تستبقى ابنتيها معها حتى يتقدم الليل، فإذا عبث النعاس بالصبيتين ووضع رأس كل واحدة منهما على إحدى فخذيها، أدركها شيء من الجزع وهمت أن توقظهما لولا أن نسيم كانت تسرع إلى الصبيتين فتحمهما إلى مضجعهما، ثم تعود إلى مولاتها فتسليها بالقصص والحديث، وما تزال بها حتى تسلمها إلى نوم مضطرب ثقيل. وقد اشتد هذا الأمر مع الأيام، حتى اضطرت الخادم أن تنام فى غرفة سيدتها، تلقى لنفسها وسادة على الأرض، وما تزال بسيدتها فى حديث وقصص، حتى إذا أحست منها استسلامًا للراحة أو إذعائًا لشيء يشبه النوم استقلت هى على وسادتها فنامت إحدى عينيها وظلت الأخرى مستيقظة لحراسة سيدتها من هذا الطائف المزعج الذى كان يلم بها كلما اطمأنت أو كادت تطمئن إلى النعاس.

وقد عاشت نفيسة ما شاء الله لها أن تعيش، وعمرت ما أذن الله لها أن تعمر دون أن تطمئن إلى النوم ليلة كاملة، إنما كانت تهب من نومها أثناء الليل فزعة جزعة؛ لأنها رأت أمها أو أباها، وسمعتهم يلقيان إليها هذا الأمر دائماً: قولى لهم يدفونها معى فأنا إليها مشوق، وقد وعدتها بذلك قبل أن أموت، أو قولى لهم يدفونى معى فأنا إليه مشوقة، وقد وعدنى بذلك قبل أن

يموت. وكثيرًا ما رُئيت شفتاها أثناء النهار تتحركان دون أن يصدر عنهما صوت؛ فلم يشك من كان حولها في أنها تردد هذا الأمر الذى صدر إليها من أحد أبويها أثناء الليل.

وقد قصت نسيم بعض هذا على سيدها خالد، فاستمع له ثم انصرف عن مولاته وهو يستعيد بالله من الشيطان الرجيم، ويقول: " أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين". وقصَّ خالد ما سمع من مولاته على أبيه، فقال: يرحم الله عبد الرحمن! ويرحم الله امرأته! ويلطف الله بنفيسة! هون عليك يا بنى وارفق بها، فإنما طائف الليل هذا الذى يزورها كجنية البيت التى تراءت لها ذات مساء وأنباتها بأنك تريد أن تدخل عليها ضرة فى بيتها. أتذكر جنية البيت! ثم سكت على لحظة، ثم استأنف حديثه قائلاً: ومع ذلك فيحسن أن نعيد هذا الحديث على الشيخ، ففعله أن يرى لنا فى الأمر رأياً. وأعاد على بمحضر ابنه على الشيخ حديث نفيسة؛ فابتسم الشيخ ابتسامة حزينة وقال: يلطف الله بها، إنما هو طائف من الشيطان قد أولع بها فصرفها عن الحياة وصرف عنها الحياة؛ ومع ذلك فارقوا بها وجنبوها العزلة ما وجدتم إلى ذلك سبيلاً. ونظر الشيخ إلى على فإذا دمعتان تترققان فى عينيه ثم لا تلبثان أن تتحدرا على خديه لتضيعا فى لحيته الكثة، وإذا هو يقول: اللهم ارحم أم خالد، واغفر لى وللشيخ الكبير ولعبد الرحمن، فقد أنباتنى أنى حين أزوج هذين الشابين لا أزيد على أن أغرس فى بيتى شجرة البؤس. لقد والله غرستها، فثبتت أصولها فى الأرض، وارتفعت أغصانها فى السماء، وأخذت تؤتى ثمرها خبيثاً مرا. قال الشيخ وهو يضحك: ما أشد ما تعبث الأوهام بعقول العقلاء! وانصرف خالد إلى أهله وهو يطيل التفكير فى شجرة البؤس هذه، يسأل نفسه عن أصولها التى رسخت فى الأرض، وفروعها التى ارتفعت فى السماء، ولكنه لا يسأل نفسه عن ثمراتها المرة الخبيثة؛ فقد ذاق بعضها ووجد طعمها المر الخبيث حين كشف له الغطاء عن قبح زوجه، وحين ألزم المضاهاة بين وجهى الصبيتين ووجه أمهما، وحين لعب الشيطان بنفسه فوسوس له ما وسوس، بل زين له ما زين. بل لقد كانت شجرة البؤس هذه مبكرة فى إيتاء أكلها، فقد ذاق أول ثمرها ولما يمض على زواجه إلا وقت قصير. رحم الله أمه! لقد كانت كارهة إذاً لهذا الزواج نابية عنه. وأكبر الظن أنه هو الذى قتلها.

وقد كان خالد سعيداً ناعم البال فى حياته الجديدة، مغتبطاً بما أتيح له من نعمة حين تزوج "منى" واصهر إلى الحاج مسعود ولم يمض عام وبعض العام على هذا الصهر حتى رزقته "منى" غلاماً ذكراً سماه محمداً. وصور ما شئت من سروره بمقدم هذا الغلام الذى جاء حسن الطلعة جميل المنظر ميمون النقيية بعد هاتين الصبيتين البائستين. نعم! إن الله لحكمة تعيا العقول عن إدراك كنهها وتعمق حقائقها. لقد غرس أبوه فى داره شجرة البؤس فشقيت بها أمه، وشقيت بها نفيسة وأسرته، وشقيت بها الصبيتان. ولقد غرس الحاج مسعود فى داره شجرة النعيم فسعد بها هو، وسعد بها حموه، وسعدت بها منى. فليت أم خالد عاشت حتى تشارك فى هذا النعيم وحتى تسعد بهذا الحفيد! وكان قلب خالد يخفق كلما ذكر هذه النعمة، وما أكثر ما كان يذكرها! لأنه كان يشفق أن تسقط فى أثائها ثمرة من أثمار تلك الشجرة البغيضة التى رسخت أصولها ونمت فرعها فى دار أبيه. وقد تواترت نعم الله على خالد، فرزقته "منى" غلاماً آخر وغلاماً ثالثاً، حتى شارك امرأته فى الخوف من حسد الحاسدين على هؤلاء الصبية الذكور الذين أخذ بعضهم يتبع بعضاً لا تخالف بينهم صبية.

ويصبح خالد ذات يوم وإذا الأسرة فى خلاف شديد وخصام يوشك أن يبلغ العنف. فقد تحدث الشيخ فى مجلسه أمس، ولم يكن خالد حاضراً هذا المجلس، بأنه قد وجد لخالد عملاً خيراً من عمله فى محكمة المدينة يؤجر عليه بما يعدل راتبه مرتين غير ما يسوقه إليه من رزق لا حرج فيه. فهذا العمل فى بعض مرافق الدائرة السنية، وما أكثر الخير الذى يساق مباركاً موفوراً إلى الذين يعملون فى مرافق الدائرة السنية! ولا عيب لهذا العمل إلا أنه سيضطر خالد إلى ترك مدينته وأسرته وشيخه وذوى قرابته لينتقل إلى مدينة أخرى فى أعلى الإقليم مما يلى الصعيد. ولكن خالدًا رجل لا يجد بالانتقال بأساً ولا يلقى فيه مشقة، والأمد بعد قريب بين المدينتين وما هى إلا ساعات لمن يقطع الطريق ماشياً. وساعات أقل لمن يقطعها على دابة، فأما إذا تتخذ المسافر هذا البدع الجديد الذى جاء من القاهرة منذ حين والذى هو حديد يمشى على حديد، ويرسل بين يديه دخاناً وغباراً، ويشق الجو من حوله بالصفير والأزيز والشهيق، هذا الذى يسمونه القطار، فإنه يقطع المسافة فى ساعة وبعض ساعة. وما ينبغى لخالد أن يضع هذه الفرصة أو أن يخيب أمل الشيخ فيه. فلم يكن الشيخ حين وجد هذا العمل واختار له خالدًا يفكر فى هذا الفتى وأسرته وحدهما، وإنما كان يفكر مع ذلك فى نفسه وفى طريقته أيضاً، فقد كانت هذه المدينة التى يريد أن يرسل إليها خالدًا هى المدينة الوحيدة التى استعصت عليه بين مدن الإقليم، فلم ترسل إليه الوفود والهدايا فى المواسم والأعياد، ولم تنتدب من فقرائها ولا من أغنيائها من يصحب الشيخ فى حجه على نفقته الخاصة أو على نفقة الشيخ، ولم تكن تحفل به إن عبرها مع

أصحابه مسافرين على ظهور الخيل أو أمر بها مع أصحابه مسافرين على ظهر النيل، قد استقر الشيخ في ذهيته واستقر أصحابه في السفن التي كانت تتلوها. بل كثيرًا ما تجهمت المدينة لهؤلاء السفر الغريباء، حتى كان الشيخ يأمر ألا ينزل أصحابه بها، وألا ترسو سفنه على شواطئها مخافة أن يصيبه ويصيبهم من أهلها بعض ما يكرهون. ذلك أن هذه المدينة ما حولها من القرى كان لها شيخها أو كان لها بيت طريقته الذي تلتف حوله وتعتر به وتثوب إليه عند الملمات، وتتافس به غيره من المشايخ وبيوت المشايخ.

وكان الشيخ الكبير رحمه الله لا يعنى بهذه الأشياء، ولا يحفل بهذه الصغائر، ولا يلتفت إلى من يقبل عليه أو يدبر عنه؛ لأنه لم يكن يبتغى استعلاء ولا جاهًا ولا بعد صوت، وإنما كان يرى حياته جهادًا في سبيل الله؛ فمن ثاب إليه تلقاه لقاء حسنًا وعلمه مما علمه الله، ومن نأى عنه لم يفكر فيه إلا مستغفرًا له وراجيًا له الخير والصالح. فأما الشيخ الشاب فمع أنه لم يقصر في ذات الله فإنه على ذلك لم يقصر في ذات الدنيا. ولم يكن يطمئن إلى أن تقوم المدينة مستعصية مريبة بين مدن الإقليم. فكان يتمنى أن يرسل إليها رسولاً، أو يقر فيها داعية، أو يكون له فيها منزل ينزل فيه إذا مر بالمدينة برًا أو من طريق النيل. فلما وجد هذا العمل - وأكبر الظن أنه قد جد حتى وجده - رضيت نفسه واستبشرت، وحزم أمره واصطنع السياسة والحكمة، فلم يفكر في أن يرسل إلى المدينة رسولاً أو يقر فيها داعية، وإنما اكتفى أول الأمر بأن يذهب هذا الموظف فيقيم في المدينة كغيره من موظفي الدائرة السنية، ويتخذ لنفسه فيها دارًا رحبة وينفق فيها راتبه وأكثر من راتبه، فسيأتيه فيها رزق كثير، وسيمده حموه بخير كثير، وسيألفه أهل المدينة ويطمئنون إليه ويجعلون له بينهم مكانًا رفيعًا. فإذا استقر هذا الموظف في بيته الجديدة تلك عامًا وعامًا، ومر الشيخ بالمدينة مصعدًا أو مصوبًا، لم يكن بأس من أن ينزل ضيفًا عليه هو وأصحابه. وما كان أكثر أصحابه هؤلاء؛ وهناك يفرح من يفرح، ويحزن من يحزن، ويغتاظ من يغتاظ، ولكنه سينزل في المدينة ويقيم فيها اليوم أو الأيام، ويقيم فيها حلقة الذكر أيضًا. وكان الشيخ يطرب طربًا غريبًا إذا رأى في خياله أن سيقم حلقة الذكر في هذه المدينة التي استعصت على أبيه ولكنها لن تستعصى عليه.

ولم يتحدث الشيخ بشيء من هذا إلى أصحابه حين ذكرهم أنه وجد هذا العمل واختار له خالدًا، وإنما ذكر مزايا هذا العمل الجديد وحاجة خالد إلى اتساع الرزق، فقد أصبح صاحب أسرة ضخمة له بنون وبنات، وينبغي أن يلتمس لهم من رزق الله. ولم تلميحًا خفيًا بأننا قد نزور خالدًا بين حين وحين. فرضى أصحابه، وحمد بعضهم للشيخ هذا السعي الحسن، ووجد بعضهم على الشيخ في دخيلة نفسه؛ لأنه لم يجد إلا خالدًا يؤثره بهذا العمل الذي يغل على صاحبه خيرًا كثيرًا. فأما على ومسعود فقد سمعا ورضيت قلوبهما وابتهجت نفوسهما، وشكرا للشيخ عطفه

وحبه: يشكره على باسمًا، ويشكره الحاج مسعود ودموعه تنهل. ويجد الشيخ ما يرضيه من بكاء هذا وابتهام ذاك.

وعاد على ومسعود إلى أهلها حين تقدم الليل. وأصبح خالد فغدا على عمله في المحكمة. فلما عاد إلى أهله رأى في داره اضطرابًا واختلافًا. فلما سأل عن ذلك أنبأته "منى" وهي تضحك بأن الشيخ قد وجد له عملاً آخر في مدينة أخرى من مدن الإقليم، وأن أمها ضيقة بهذا الانتقال رافضة له؛ لأنها لا تحب أن تفارق ابنتها ولا أن تفارق حفدتها، وإنما تريد أن تراهم متى شاءت، تريد أن تراهم مصبحة، وأن تراه ممسية إن أحببت أن تراهم آخر النهار، وأن يزورها إن أرادوا وتستزيرهم هي إن أرادت. فأما هذه المدينة التي يسافر المسافر إليها على ظهور الخيل أو الإبل أو الحمر أو في هذا القطار البغيض، فليس لها فيها أرب. لن تأذن بأن يفرق مفرق بينها وبين ابنتها، وحسبها بالموت مفرقًا للمحبين. فإذا ذكر لها ارتفاع الراتب وكثرة ما سيصيب ابنتها من الخير سخرت من ذلك ورفعت له كتفيها وقالت: ما حاجة خالد إلى ارتفاع الراتب وإلى هدايا الناس والخير عندنا كثير!! وهل شكا خالد أو أحد من أهله تقثيرًا في الرزق أو ضيقًا في ذات اليد؟! فإذا ذكر لها أن الشيخ هو الذي وجد هذا العمل واختار له خالدًا، أخذها غيظ شديد وقالت: إن أتباع الشيخ كثيرون، منهم الشباب والكهول والشيوخ، فما باله لم يختار إلا خالدًا؟ خلوا بيني وبين الشيخ، فلئن لقيته لأغيرن من رأيه، فإن لم أستطع فسأعصى أمره مجاهرة بالعصيان. أفتظنون أني أخاف الشيخ أو أفرق منه؟! لقد رأيته صبيًا يدرج، ولقد لابعته وداعبته قبل أن يبلغ العاشرة من عمره. اتخذوه لكم شيخًا، فأما شيخى أنا فقد مات، ولو كان حيًا ما فرق بيني وبين ابنتي. وكان زوجها يحاول إرضاءها عن اختيار الشيخ، يلطف لها حينًا، ويعنف بها حينًا آخر، فلا يبلغ منها شيئًا فلما ارتفع الضحى أقبلت إلى ابنتها ثائرة تريد أن تنتقل إليها الثورة، فلم تر فيها ميلًا إلى الثورة، ولا استعدادًا للعصيان. فلما سألتها مغيظة عن رأيها، قالت "منى" في صوت هادئ مضطرب بعض الشيء: ومتى كان لى في مثل ذلك رأى؟! إنما رأى خالد، فأنا مقيمة إن أقام، ومرحلة إن ارتحل. هنالك تحولت ثورة الأم فجاءة إلى حزن عميق، فانهازت إلى زاوية من زوايا الحجرة التي كانت تتحدث فيها إلى ابنتها، وأغرقت في بكاء صامت متصل. ولو كشف للناس عما كان في قلبها إذ ذاك لرأوا فيه شيئًا من خيبة الأمل والاستعداد للإذعان؛ فقد رأت من زوجها إصرارًا، ومن ابنتها إثارة لطاعة الزوج. وماذا تستطيع أن تصنع وحدها أمام هذه القوى التي تكاثرت وتظاهرت لا تريد إلا أن تفرق بينها وبين ابنتها؛ ومتى لقيت من الحياة خيرًا؛ أما زوجها فمشغول بشيخه وتجارته. وأما بناتها فلا تكاد إحداهن تتزوج حتى كل شيء وكل إنسان إلا زوجها وبنيتها. وماذا ننكر عليهن وهن لا يزدن على أن يسرن سيرتها! فقد نسيت هي دارها وأمها منذ زفت إلى الحاج مسعود؛ فلم لا تنسى "منى" دارها وأمها منذ زفت إلى خالد، ثم تنجم

فى قلبها الساذج عاطفة مؤلمة تشبه الغيرة وما هى بالغيرة، فهى لم تلد لزوجها إلا بنات، وهؤلاء بناتها يلدن لأزواجهن البنين. فهن أحسن منها حظاً وأعظم منها نصيباً من الخير، وآثر منها عند أزواجهن. ولو أنها ولدت للحاج مسعود غلاماً أو غلامين لكانت له معها سيرة غير سيرته هذه. ثم تلوم البائسة نفسها على ما ساورها من سوء الظن بزوجها وهو الذى لم يقدم إليها إلا خيراً وبراً، وهو الذى لم يفكر فى أن يدخل عليها ضرة لعلها تلد له غلاماً، بل هو الذى لامها أشد اللوم وعنفها أشد التعنيف وأنذرها بأنه سيشكوها إلى الشيخ حين ألحت عليه منذ سنتين فى أن يتخذ زوجاً ثانية لعلها تلد غلاماً، فما ينبغى أن يؤول أمر هذا الدار إلى البنات وأزواجهن من الغرباء. وكانت جادة فى هذا الإلحاح، وكانت قد اختارت للحاج مسعود بنفسها فيما بينها وبين نفسها زوجته الثانية. ولكن الحاج مسعود كان جاداً فى رفضه وجاداً فى إنذاره بأن يرفع أمرها إلى الشيخ. وقد زاد حبه لها منذ تلك المحنة، واشتد عطفه عليها، حتى لقد كان يصطحبها معه إلى الحج إيثاراً لها بالخير وكراهية لفراقها؛ فما ينبغى أن يسوء ظنها به أو يفسد رأيها فيه، وما ينبغى لها إلا أن تطيعه وتذعن لأمره، إنه سيفرق بينها وبين ابنتها؛ فليكن ما يريد، فلو أن الله قد كتب ذلك لما خطر هذا خاطر للشيخ، ولما ألح فيه الحاج مسعود. وهل خلق النساء فى هذه الحياة إلا لطاعة الأزواج والإذعان للقضاء المكتوب!.

فلما عرف خالد ذلك تردد ساعة بين الرضا والسخط، ولكنه لم يلبث أن اطمأن إلى الرضا، فهو لم يتعود أن يخالف عن أمر الشيخ، وهو مدين بما فى حياته كلها من خير وشر للشيخ ولأبيه، فأما الشيخ الكبير فقد زوجه نفيسة وأذاقه ثمرة البؤس، ولكنه خطب له "منى" وأما الشيخ الشاب فقد زوجه منى وفتح له أبواباً من الخير، ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾

وهو يقبل مع امرأته على حماته ويسليانها ويعزيانها ويطريانها، حتى تظهر الرضا وفى نفسها إذعان، ولكنه إذعان ساخط مغيط.

فإذا قص خالد أمره على أخيه وصديقه سليم، قال له هذا ضاحكاً لم تتبى بأمرك جاهلاً! فقد علمت منه مثل ما تعلم، وقد سررت له وحمدته للشيخ وإن كنت لأضمر له حباً عميقاً، وأكاد أندم على أنى لست من أتباعه وشيعته. فلو قد كنت منهم مثلك لجاز أن يجد لى عملاً كالذى وجده لك، يبسط لى فى الرزق ويخرجنى من هذه المدينة التى أخذت أبغضها أشد البغض وأضيق بأهلها أشد الضيق. قال خالد أتحب أن أكلمه فى ذلك؟ قال سليم: لا تفعل! فإنى لم أحسن رعاية حقه، ولا أرانى قادراً على أن أستأنف معه سيرة جديدة؛ فقد ألحقنى أبوه بعملى كما ألحقك بعملك، فوفيت أنت للرجلين، ووفيت أنا الشيخ الكبير وقصرت فى ذات الشيخ الصغير.

وماذا تريد أن أصنع؟ لقد لاعبته صبيًا، وداعبته وخاصمته شابًا، فكيف تريدني على أن أرى فيه الآن شيخًا له فضل أبيه، أتراني أستطيع أن أدين لك بمثل ما تدين به الشيخ، وإنما نحن أتراب، لعبنا معًا، ونشأنا معًا، ثم اقترفت بنا طرق الحياة فأصبح هو شيخ طريق، وأصبحت أنا كاتبًا في المديرية، وأصبحت أنت كاتبًا في المحكمة. أستغفر الله بل موظفًا في الدائرة السنية يقبض في آخر الشهر ثمانية جنيهات لا أربعة. قال خالد وهو يضحك: صدق الله العظيم: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا﴾. ثم سكت خالد حينًا ثم قال: ولكنى غير مطمئن إلى هذا الانتقال كل الاطمئنان. قال سليم: لا تكن محققًا، راتب ضخم، وخير كثير، وفراق لهذه المدينة، ورضا الشيخ، ماذا تريد أكثر من ذلك؛ وهم خالد أن يتكلم فمضى سليم في حديثه قائلاً. لا تهتم لنفيسة وابنتيها، فسأراهن بعد سفرك كما ترعاهن أنت الآن وأنت تعرف بر زبيدة بهن وحبا لهن. أليست جلنار خطب سالم؟! قال خالد وهو يضحك: وصلتك رحم! فما كنت أشك أنك ستقوم مقامى منهن. قال سليم: ولكن ذلك لن يعفيك من أن ترزقهن وتعين أباك. قال خالد: وهل فى ذلك شك؟ سأيسر عليهن فى الرزق، وسأضعف لأبى معونته. ولم تمض أسابيع حتى كان خالد قد استقر فى مدينته تلك النائية القريبة، واستأنف عمله الجديد. ثم لم تمض أشهر حتى كانت "منى" قد رزقته غلامًا رابعًا.

قال سليم وهو مغرق فى الضحك - وكان قد جاء زائرًا لخالد وأسرتة-: ماذا تريد؟ لقد أصبحت تلك الناحية من دار أبيك بيمارستًا، وأصبحت زبيدة ممرضة لإحدى المجانين. فأما نسيم فقد أرمتها أن تعزل الصبيتين وأن تعنى بهما، وألا تجعل بنيتها وبين أمهما سببًا حتى تتجابه عنها هذه المحنة. وأظنك توافقنى على أن الدور لم تقم ليمرض فيها المجانين؛ فللمجانين دارهم الخاصة فى القاهرة. وأظنك توافقنى أيضًا على أن زبيدة ليست هى التى تحسن رعاية المجانين والقيام عليهم. فأطعننى يا بنى، ولنرسل نفيسة إلى حيث ينبغى أن تقيم.

قال خالد وفى عينيه دمعتان تريدان أن تسقطا ولكنه يعلقهما بين جفونه فى شيء من الجهد: حاش لله! لن يكون هذا وأنا حى. ماذا أقول عبد الرحمن وزوجه إذا التقينا فى الآخرة؟! وماذا أقول للشيخ إذا سألنى عن العهد الذى أعطيته على نفسى؟ وكيف أرضى لابنتى أن يقال إن أمهما قد اضطرب إلى مستشفى المجانين؟!

قال سليم فى شيء من الجد: وماذا تريد أن تصنع إذا؟ فإن حال نفيسة لا تطاق، ولا سبيل إلى ترميضها حيث هى الآن. وهم خالد أن يجب، ولكنى "منى" سبقته إلى الحديث فقالت: إنما مكان نفيسة هنا فى هذا الدار، أقوم عليها أنا ومن معى، ويرعاها أبو ابنتيها من قريب كما كان يرعاها قبل أن ينتقل إلى هذه المدينة. قال الرجلان معًا: أو تفعلين؟ قالت منى: ولم لا؟ سأخذ ابنتيها ابنتين لى، وقد رزقنى الله أربعة غلمان ولم يرزقنى بنتًا واحدة. قال سليم وعلى ثغره ابتسامة راضية وفى صوته حنان لم يعرف منه. بل تتخذين ابنتيها أختين لك، فما أرى أن الفرق بينك وبين سميحة عظيم. أما خالد فقد عجز عن ضبط نفسه فأرسلها على سجيته، وعن إمساك دموعه ففرق ما بين جفونه، وإذا هو ينتحب، وإذا دموعه تنهمل على خديه انهمالًا. فلما رأى سليم ذلك من أمره عاد إلى المألوف من عنفه الظاهر وجفونه البادية، فأغرق فى الضحك وهو يقولك ما رأيت كاليوم رجلاً يشبه النساء وامرأة تشبه الرجال. انظر أيها الأحق إلى امرأتك وتعلم منها كيف يكون لقاء المحن، وكيف يكون الثبات للخطوب. ألا تستحي أن يدخل بنوك وأن يروك فى هذه الحال! ثم التفت إلى "منى" وهو يقول: جففى له دموعه أو ابغيه منديلاً يجفف به هذه الدموع. ولكنكما لم تسألانى كيف كان بدء هذه القصة التى انتهت بنفيسة إلى ما هى فيه؛ فإن هذه القصة مؤلمة حقًا، ولكن فيها مع ذلك كثيرًا من الغرابة وكثيرًا من الفكاهة أيضًا. قالت منى: من الفكاهة؟! قال سليم: نعم من الفكاهة. أتعرفين من دفع نفيسة إلى هذه الحال؟ قالت منى: من دفعها إلى هذه الحال؟ قال سليم: أتذكرين أم رضوان أم لعلك نسيتها؟ قالت منى: أم رضوان! وكيف أنساها ولم يبعد عهدى بها؟ قال سليم: فهى التى فتحت لنفيسة هذا الباب

المنكر الذى لا نعرف كيف نخرجها منه. قالت منى: وكيف ذاك؟ قال سليم وهو يلتفت إلى خالد: إنك لتعرف دار أبيك فى ذلك اليوم من الشهر حين يهيا الخبز، وإن أم رضوان هى التى تخبز لهم فتذكر إن كنت ناسياً، كيف يكون الاستعداد لهذا اليوم: لا تكاد الشمس تجنح إلى مغربها حتى تكون إحدى نساء الدار مشغولة بإعداد الخميرة، فإذا تقدم الليل شيئاً تعجل النساء نومهن ونامت فى الدار أم رضوان فلم يذق النوم إلا غراراً؛ فهن ينهضن إذا انتصف الليل أو قارب ثلثيه، وهن يسرعن ينفقن فيه الساعة أو أكثر من الساعة، يتنافسن فيما يبذلن من جهد، لكل واحدة منهن وعاؤها الذى تعجن فيه. حتى إذا أتممن ذلك وفرغن من تنافسهن وما يكون بينهن من حديث يهمس به هماً أو غناء يخافتن به مخافة أن يصل إلى آذان الرجال، والجاهلات مع ذلك يلحظن أن ما يحدث من الصوت فى أوعيتهن كاف لإيقاظ المغرقين فى النوم العميق، ولكنهن لا يتحدثن إلا همساً، ولا يتغنين إلا إسراراً، فإذا فرغن من عملهم ثبن إلى مضاجعهن صاحباتها لتحمى التتور، فتمتلئ القاعة وهجاً، وتمتلئ الدار دخاناً، ويهب أهل الدار مع الفجر: فأما الرجال فيصلون ويعجلون قهوتهم، ويغدون مع الطير. وأما النساء فيسرعن أو يبطنن إلى قاعة التتور، فهن قد اتخذنها موعداً للقاء. هنالك تجلس أم رضوان إلى جانب الفرن لتتضج الخبر ترقصه على مطرحتها حيناً ثم تدفعه إلى التتور دفعاً، ثم لا تلبث أن تخرجه بغصنها ذاك من سعف النخل. وما تزل ترقص رغيماً وتخرج رغيماً حتى يرتفع الضحى والنساء من حولها يداعبنها ويتلاطنن بأحاديث مختلفة، فيها الجد وفيها الهزل وفيها الشكوى وفيها المؤاساة.

قال خالد وقد كاد يرد إلى صباه. فما شأن هذا كله وما نحن فيه؟ قال سليم: شأن هذا كله وما نحن فيه، أن نفيسة كانت بين النساء فى قاعة التتور. فقصت أم رضوان قصة سمعتها نفيسة فصدقها وهمت أن تحققها، فلما ردت عن ذلك بعد جهد أى جهد أصابها ما هى فيه الآن. قال خالد: وما قصة أم رضوان هذه؟ قال سليم: كان النساء يتجاذبن أحاديث الجن وأحاديث الجنيات خاصة حين يظهرن إذا تقدم الليل ويرقصن فى ضوء القمر. فقالت أم رضوان: لقد رأيت فى قرينتنا أمراً عجباً، رأيت به بنفسى فلا أستطيع أن أكذبه، ولو حدثنى به أحد غير لرفضته كل الرفض. قال النسوة: وماذا رأيت يا أم رضوان؟ قالت: إنى أخاف أن أقص عليكم ما رأيت. قال النسوة: بل قصيه علينا، وألحن فى ذلك وفى نفوسهن ثقة بأن أم رضوان لم تر شيئاً، ولكنه الشوق إلى القصص والرغبة فى الشعور بالخوف وهذه اللذة الغريبة التى يجدها فى إثارة الفرع فى نفوسهن.

قالت أم رضوان: كنت أخبز فى قرينتنا لجارة لنا ذات مساء كما أخبز الآن، وكانت صاحبة الدار أم عثمان جالسة معى بين أتراب لها وجارات، وكنا نتحدث كما نتحدث الآن، وإذا امرأة من أهل القرية تدخل علينا متفرجة متفجعة، فإذا سألناها عما بها زعمت لنا أنها خرجت مع

صاحباتها من آخر الليل يملأن جزارهن. وإنهن لعائدات يغنين فى صوت خافت يستأنسن بالغناء من وحشة الليل، وإذا هن يسمعن أصواتاً لا يكدن يتبينها. فيصغين ويمددن أبصارهن فيرين نساء يلطمن وجوههن وهن يتغنين بمثل ما تتغنى به الناديات فيقلن: يا ساريات فى السحر يسعين فى ضوء القمر

يسعين فى ضوء القمر فقلن يا شر الزهر		يا ساريات فى السحر إذا بدار الصبح الأغمر
أصابه سهم القدر		إن أبا يحيى عمر
هل لك فيه من وطر		فهو صريع محتضر

قالت أم رضوان: لم تكد هذه المرأة تتم حديثها حتى رأينا أم عثمان قد ثارت مولولة، فنقضت شعرها، ومزقت ثيابها، وجعلت تلطم وجهها، وتضرب صدرها، ونحن نحاول أن نردها إلى الهدوء ونسألها عن أمرها، ولكنها بعد حين تثوب إلى نفسها قليلاً تقول لنا فى صوت يقطعه الشهيق، أنا نشر الزهر وعمر أبو يحيى هو أخى! قرآن تحيتى على زوجى واستوصين بعثمان خيراً؛ فلا بد من أن أرى أخى قبل أن يموت، وما أرانى أدركه، ولعلى أعود إليكن وإلى زوجى وابنى إذا انقضت أعوام العزاء، فالعزاء عندنا لا يكون فى الأيام ولا فى الأشهر وإنما يكون فى الأعوام الطوال. قالت أم رضوان: وكدنا نظن بصاحبتنا الجنون، ولكن ما راعنا إلا أن رأيناها تقذف نفسها فى التتور، فلا نرى لها أثراً ولا نسمع لها حساً. كانت جنية تمثلت لأبى عثمان امرأة فتزوجها وولدت له ابنه عثمان، ثم جاءها النبأ أن أخاها يحتضر فأسرفت للقائه قبل أن يموت، وسلكت إليه أقرب الطرق وهو التتور حين يكون ملتهباً. والجنيات يألفن التتور؛ ولذلك لا ينبغى أن يحمى التتور دون أن يذكر اسم الله عند إشعال النار. فإن ذلك يطرد منه الشياطين، ويؤذن المسلمات بأنه سيحمى فيخرجن منه قبل أن يدركهن شيء من النار. ولم تكد أم رضوان تبلغ هذا الموضع من حديثها والنساء يسمعن لها مرتاعات ملتاعات، منهن من تمسك الشهيق ومنهن من تدفعه، حتى ثارت نفيسة كأنها الجنية وقد نثرت شعرها وقدت ثوبها وأخذت تعول إعوالاً متصلاً، وتلطم وجهها، وتضرب صدرها، وهى تصيح وأبتاه وأماه! ثم تدفع نفسها إلى التتور تريد أن تدخل فيه لتسلك أقرب طريق إلى أبويها، كما دخلت فيه أم عثمان لتسلك أقرب طريق إلى أخيها. هنالك يفيق النساء من خوفهن المتكلف وفزعهن المصطنع ويتكاثرن على نفيسة فيرددنها عن التتور بعد جهد، ثم يحملنها فى مشقة شاقة إلى حجرتها، وهى تضطرب بين أيديهن، تلطم

هذه وتخمش تلك، وهن على ذلك جاهدات فى حملها حتى يبلغن حجرتها، وقد سبقت إحداهن إلى أبيك وهو ذلك الصباح فى غرفة أم خالد مغرق فى صلاته ودعائه، فإذا دخلت عليه وأنبأته النبأ، أسرع ساخطاً إلى حجرة نفيسة. حتى إذا رآها ثائرة فاترة لا تستقر ولا تدع من حولها يستقر، دنا منها يريد أن يضع يده على رأسها وهو يقرأ فى صوت مرتفع ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ١ مَلِكِ النَّاسِ ٢ إِلَهِ النَّاسِ ٣﴾ من شر الوسواس الخناس الذى يوسوس فى صدور الناس من الجنة والناس ٤﴾، ولكنه لا يكاد يبلغها حتى تهب كأنها الشيطان مندفعة إليه فى عنف آخذة بلحيته أخذاً شديداً والشيخ يتراجع فزعاً جزعاً، وهو يلعن الجن والإنس جميعاً. حتى إذا بلغ باب الغرفة قرأ آية الكرسي واستغفر الله العظيم، ثم التفت إلى النساء وقال أوثقنها إن استطعن ودعنها حتى تهدأ، فلا بد من أن يدركها الإعياء بعد حين. وقد وفق النساء لإنفاذ أمر الشيخ، ثم تركن نفيسة موثقة فى حجرتها معولة تدعو أباهاً وأمهاً، وتلعن الذين منعوها من أن تسلك إليهما طريق التتور، وامرأة قائمة من الغرفة غير بعد تلحظها خائفة وهى تستعيز بالله من الشيطان الرجيم. وينتهى الأمر إلى زبيدة فتسرع إليها، وما تزال بها حتى ترد إليها شيئاً م هدوء بعد أن ردت إليها حرقتها داخل الحجرة، وهى منذ ذلك اليوم تلزمها لا تكاد تفارقها إلا ريثما تعود إليها بعد أن تعنى بما يمكن أن تعنى به من شئون البيت. أفترين أنك قادرة على أن تسكنيها فى دارك وتمنحيها ما تحتاج إليه من الرعاية؟ قالت منى: نعم! يجب أن تأتى وأن تقيم معنا، وأنا واثقة بأنها ستترك المرض وراءها فى مدينتكم تلك؛ فقد كانت هذه المدينة عليها شؤماً.

وحملت نفيسة بعد أيام إلى دار خالد فى مدينته تلك متعبة منهوكة القوى. ولكن "منى" عرفت كيف ترعاها، وترفق بها، وتتلف لابتنيها حتى رد إليها شيء من عافية، فأقامت فى الدار ما شاء الله أن تقيم حية كالميتة، ميتة كالحية، وشبهاً على كل حال، لا يكاد من يراها يظن أنها كانت امرأة وأنها كانت أمًا.

وستضعف الأسباب بيننا وبين المدينة التي نشأ فيها خالد ونشأت فيها أسرته، والتي نشأ فيها على وأسرته أيضاً، والتي أقام فيها الشيخ الكبير وخلفه عليها ابنه الشيخ الشاب. ستضعف هذه الأسباب وترث حتى توشك أن تنقطع؛ لأنها قويت بين خالد وبين مدينته التي استقبل فيها الحياة؛ فقد استقر خالد في وطنه الجديد حتى أصبح من أهله، واتصلت المودة بينه وبين أهل المدينة وأهل القرى المجاورة، وأخذت زيارته هو لمدينته ثقل وتتباعده، وأخذت زيارات أهل المدينة له ثقل وتتباعده أيضاً. وجعل الشيخ يمر بالمدينة في طريقه إلى الصعيد فيقيم فيها اليومين أو الثلاثة، ويمر بها في عودته إلى مدينته فيقيم فيها اليوم واللييلة، لا يلقي من أهلها كيداً، بل يلقي منهم تجلة وتكريماً؛ لأنه ضيف خالد، ولأن إمامه بالمدينة عيد للفقراء والأغنياء جميعاً. وجعل أبو خالد يزور ابنه في الشتاء كل عام، فينفق عنده الشهر أو الأشهر كريماً موفوراً ناعم البال. وجعل الحاج مسعود يزور ابنه مرتين في العام لا يقيم في كل مرة إلا الأسبوع يحملونه عليه حملاً. ثم يعود إلى داره وشيخه وماله. واطردت أمور القوم على هذا النحو، والأيام تمضي والأيام تجيء، والصبية يكبرون، والكهول يشيخون، والشيخ يسعون إلى الهرم أو يسعى إليهم الهرم. ومن أولئك وهؤلاء من يدركه الموت في إبانة أو يختطفه قبل أوانه ليكون البكاء والحزن ثم يكون العزاء والسلوة. فقد ماتت زبيدة ولما تتقدم بها السن، وتركت لزوجها ابنها سالمًا وعليًا، فحزن سليم وبكى، ثم تعزى سليم وسلا، واتخذ له زوجًا ثانية وثالثة، وكاد يسلك طريق عمه الشيخ لولا أن الحوادث أدبته فأحسن تأديبه، ولولا أنه كان يلقي من زوجه نكرًا أي نكر. ولو استطاع لطلق إحداهما. ولكنه كان يكره الطلاق، ويشفق على زوجه أن يصيب إحداهما المكروه إن تحولت عن داره. فكانت عشرته لهما محنة، ويحتسب ما كان يلقي منهما عند الله ويقول لصديقه وأخيه خالد: كل امرئ يجاهد كما يستطيع: شيخك يجاهد الحج في كل عام، فيكسب منه مالا وثوابًا إن أراد الله أن يثيبه على مثل هذا الحج. وأنت تجاهد في تربية أبنائك وتعليمهم، تتكلف في ذلك ما لا يطيق، وتسلك بهم طريقًا لم تسلكها أنت؛ لأن أباك لم يدفعك غليها، ولأنه لم يفكر في أن يجعلك خيرًا منه كما تفكر أنت في أن يكون بنوك أحسن منك حالاً. وأنا أجاهد في احتمال الشر ولقاء الضر من امرأتي، تسوءانني في كل يوم وأسوءهما من حين إلى حين، وتلقيانني بالنكر من القول والشر من العمل، فأصبر على ذلك ما وسعني الصبر، حتى إذا لم أطق عليه صبرًا عمدت إلى العصا فشفيت بها نفسي من جسم هذه أو جسم تلك. وقد يبلغ الغضب بي أقصاه، فأقرنهما في حبل واحد، وما أزال أعمل فيهما السوط أريحه من هذه لأتعبه مع تلك حتى تتوبا وتتوبا وتعنتقا والعذاب ينصب عليهما انصبابًا. فإذا رفعت عنهما السوط

وأطلقتهم من الحبل لم تهدأ إلا ريثما تستأنفان ما كان بينهما من الشر، فتعود الدار جحيماً، وأذوق أنا فيها العذاب الأليم.

قلت لك: كل امرئ يجاهد كما يستطيع. ولست أشك في أن حظي من رضوان الله لن يكون أقل من حظك؛ لأنني احتمل مثل ما تحتمل من الألم، بل أكثر مما تحتمل من الألم، وأحمل نفسي على مثل ما تحمل نفسك عليه من الجهاد، بل على أكثر مما تحمل نفسك عليه من الجهاد. وكان خالد يسمع هذا الحديث فيبسم له، ويظهر إقراره، ثم يعود به على امرأته فيضحكان من بعضه ضحكاً كثيراً، وينكران بعضه الآخر إنكاراً شديداً. والشباب والصبية من أبنائهما يسمعون من ذلك ما يسمعون فيضحكون ويقلدون، ويعبثون إذا خلوا إلى أنفسهم أو إلى أمهم، بأبيهم حيناً، وبعمهم حيناً، وبجدهم الشيخ حيناً، وأمهم تسمع فتظهر الغضب وتكتم الرضا، وربما قصت من ذلك على زوجها أطرافاً فضحك له وارتاح إليه، وربما استخفى زوجها في بعض الحجرات ليتسمع على بنيه وهم يعبثون بالأسرة ويقلدون شيوخها وكهولها. ويقلدونهم في اللهجة، ويقلدونهم في الصوت، ويقلدونهم في حركات الوجه واليدين، وقد يقلدون في التفكير أيضاً. وكان الاختلاف بين خالد وسليم قد اشتد وظهرت آثاره واضحة كل الوضوح على مر الأيام وتتابع السنين. فأما خالد فقد أقام في مدينته تلك بين جماعة من الموظفين يختلفون في الطبقة والثروة والثقافة والذوق. وكان خالد طموحاً، ولم تكن امرأته أقل منه طموحاً إلى الرقي، فكان خالد يحرص على أن تكون داره كدار كبار الموظفين، حسنة النظام، جميلة التنسيق، نفيسة الآنية والأداة. وكانت امرأته تعينه على ذلك أحسن معونة، وتدبر له ذلك أحسن تدبير، ولم يكن خالد يطمئن حتى يدعو إلى داره كبار الموظفين وأهل الثراء. فإذا رآهم يطعمون وينعمون، ولا ينكرون من أمر الدار شيئاً امتلأت نفسه غروراً وفخراً، وعاد على امرأته بذلك يمنحها أخلص الحب، ويثني عليها أجمل الثناء.

وأما سليم فأقام في مدينته الأولى لم يبرحها، وعلى عمله الأول لم يغيره، وعلى عادته القديمة لم يبدل منها شيئاً؛ فكان كل شيء يتجدد من حوله وهو مقيم على قدمه. يكره التطور وينفر من التجديد، ولم يكن له حظ من طموح ولا أمل في رقي. رضى بما قسم الله له، ورأى أنه أبعد أماده وآخر غاياته، فاطمأن إلى نهاره وليله، وإلى ما يلقي في نهاره ويله من حوادث الحياة، وشغل بما كان يلقي من زوجتيه من شر وضر. وكان إذا ضاق بالحياة أو ضاقت الحياة به في مدنه عمد إلى صديقه وأخيه يزوره، يقضى عنده الأيام، وقد يقضى عنده الأسابيع، يجد في ذلك السعادة والراحة والرضا، وتجدد الأسرة في مقامه عندها سعادة وراحة ورضا أيضاً. فقد كان كثير العبث بأخيه وأبناء أخيه، يتندر على هذا الترف الذي يتكلفونه؛ فقد كان يرى كل شيء عندهم تكلفاً، ويسخر من هذه المكانة التي يرفعون إليها أنفسهم وهم أبناء ذلك الشيخ الذي أنفق حياته

فى تجارة انتهت إلى كساد، وفى صلاح كاد ينتهى إلى فساد. يجلس إلى مائدتهم تلك المرتفعة التى قد صفت حولها الكراسي، فلا يملك نفسه أن يغرق فى الضحك، وأن يذكر خالداً بأيامه تلك القريبة وأيام أبيه حين كانوا يجلسون إلى طعامهم متربعين على الأرض، يغمسون أيديهم فى صحافهم إلى الأرساغ، وقد يغمسونها إلى المرافق حين تقدم لهم صحاف الفت والكشك فى بيوتهم أو فى أعقاب الذكر. وكانت الأسرة تسمع هذا منه فتضحك له ضحكاً كثيراً، ربما صرف الصبية والشباب عن طعامهم، وربما أشرق بعضهم بشرابه. وكانت "منى" تسمع له فتضحك أول الأمر. فإذا أكثر سليم همت أن تظهر غيظها، ولكن سليماً يضطرها إلى الضحك حين ينتقل من عمه على إلى أبيها الحاج مسعود، ذلك الذى أتاح الله لتجارة رابحة وصلاً متصلاً، ولكنه ما زال يجلس على الأرض إذا أراد أن يطعم، وما زال أحب الطعام إليه الثريد والشك يغمس فيه يده إلى مرفقه: فلا تفخرى يا سيدتي، فلم يلدك الترك ولا أنت بنت المدير. هنالك لا تملك الأسرة نفسها من الضحك والإغراق فيه. وكان سليم أسرعهم إلى الضحك وأبطأهم فى الرجوع إلى الجد، لا يسخر من الأسرة وحدها، وإنما يسخر من نفسه قبل أن يسخر من أى إنسان آخر. وكان أشد الأشياء إثارة للغيظ فى نفسه أن يرى الأسرة تعاف الماء الكدر وتحرص على أن تروقه فى الزير وتقطره فى هذه الآنية تضعها تحت الأزيار وتضع فوقها المصفاة. كان يرى ذلك فيغتاض ويحتاج، ويلتفت إلى أخيه وإلى أبناء أخيه وهو يصيح فى صوته المرتفع المضحك: آه يا أولاد الكلب، من أين جاءكم هذا العز؟ إنكم لتحرمون أنفسكم خيراً كثيراً. إنكم حين تشربون هذا الماء المصفى أشبه الناس بالذين يشربون اللبن بعد أن استخرج من الزيد. ثم أسرع إلى الكوز فيغمسه فى الزير ويعب فيه عباً شديداً، ويقول: هكذا رأينا آبائنا يشربون؛ لأنهم لم يكونوا من الترك ولا من الأرمنوط.

ولم يكن هذا كل الاختلاف بين الأخوين والصديقين، وإنما كان بينهما اختلاف آخر أبعد من هذا فى حياتهما وصلاتهما أثراً. فقد كان خالد يحرص على أن يعلم بنيه كما يعلم كبار الموظفين أبناءهم، لا يكتفى بأن يحفظوا القرآن ويحسنوا شيئاً من الكتابة والحساب، وإنما يحرص على أن يرسلهم إلى المدارس ليلووا ألسنتهم بهذه الرطانة الأجنبية، وليلبسوا هذه الأزياء الأجنبية، ولتطلق المدارس عليهم هذه الأسماء التركية فهمي، وشوقى، وصبحى، وليصبحوا إذا شبوا موظفين كباراً. وأما سليم فكان يضيق بذلك أشد الضيق، ويرى أن أباه لم يرسله إلى المدرسة، وأن جده لم يرسل أباه إلى المدرسة، وأنه قد فر بنيه من المدرسة فراراً، ويرى أن هذه المدارس لم تنشأ للفلاحين، وإنما أنشئت لأبناء الذوات وأن أبناء الفلاحين إذا ذهبوا إليها فسدت أخلاقهم وتقطعت الصلاة بينهم وبين آبائهم وأمهاتهم، وطمعوا فيما لا يقدرُونَ عليه. وانتهوا إلى فساد لا فساد بعده. وكان يقول لخالد: ألا تنظر لبنيك فى هذه الأزياء الضيقة التى لم تخلق لهم، فهم إذا

اتخذوها أشبه شيء بالعفاريت! ألا تسمع لهم حين يتراطنون فيما بينهم بما لا تفهم! ما يدريك! يشتمونك وأنت لا تعي. وكان هو قد أرسل ابنه سالمًا إلى حذاء يتعلم عند صناعة الأحذية، وأرسل ابنه عليًا إلى خياط يتعلم عنده صناعة الأزياء الأوروبية. وكان يقول متضحًا: قد كبرت يا خالد وكبر أبناؤك، وأصبحتم لنا سادة وأصبحنا لكم خدمًا. سيصنع أبنائي لأبنائك ما يحتاجون إليه من الأحذية والثياب. ولكن احذر أن يدفعك ذلك إلى النظر، وأن تبخل بجلنار على سالم لأنه حذاء، وأن تبخل بأولى بناتك من "منى" على لأنه خياط، ثم يغرق في الضحك وتغرق الأسرة في الضحك معه أيضًا.

وكذلك رثت الأسباب قليلاً قليلاً بين الأسرة وبين المدينة الأولى، حتى أصبح التزاور بين أفراد الأسرة في المدينتين طرفة من الطرف، تشتد فيها الرغبة أحيانًا وتقصر الآمال عن تحقيقها. كذلك استقلت أسرة خالد قليلاً قليلاً، حتى أصبحت وكأن لم يكن بينها وبين أصولها في المدينة الأولى عهد، وحتى شغلت بأمورها وخطوبها عن أمور الآخرين وما يعرض لهم من خطوب.

فلندع هؤلاء الآخرين لحوادث الأيام ونوب الدهر تصنع بهم ما تصنع بالناس جميعًا، ولقن مع هذه الأسرة الناشئة التي أخذت تنمو في سرعة؛ فقد نجد في الإقامة معها ما يكفي لإتمام هذا الحديث.

لبثت "سميحة" فى دار أبيها عامين لم تلق فيهما إلا خيرًا، ولم تذق فيهما إلا هناة، رغد كثير لم تألفه فى عزلتها تلك بين أمها وأختها ونسيم من جهة، وجدها القاسى الجافى الغليظ من جهة أخرى، وفى حياتها تلك التى لم تكن ضيقة كل الضيق ولكن لم تكن واسعة كل الساعة، وإنما كانت شيئًا بين ذلك، فيه الرخاء أحيانًا وفيه الشدة والعسر أحيانًا أخرى. فى تلك الحياة لم تعرف سميحة حنان الأب ولا حنو الأم. وأنى لها حنان الأب ولم يكن أبوها يراها إلا بين حين وحين، ولم يكن يراها إلا الوقت القصير يبسم لها ويلقى إليها كلمات حلوة لعلها لم تكن تخلو من تكلف ثم ينصرف عنها وقد ألقى فى يدها نصف القرش أو المليمات، وأنى لها حنو أمها وقد كانت مريضة أكثر الوقت، لا تحفل بابنتيها، وربما نسيت فى بعض الأوقات أن لها ابنتين! وفى تلك الحياة لم تعرف سميحة فرحًا ولا مرحًا ولا ابتهاجًا. وأنى لها ذلك وقد كانت مقصورة أو كالمقصورة على عشرة أختها جلنار، وبين أمها البائسة وخادمها السوداء، لا تكاد تختلط بصبيان الدار من أعمامها وعماتها الصغار، فقد كان يحال بينها وبين ذلك، يرى أبوها أن فى مخالطتها لهم شرًا عليها، ويرى جدها أن فى مخالطتها لهم شر عليهم، فأما فى حياتها الجديدة فقد تغير كل شيء: أمها بائسة سقيمة من غير شك، ولكنها لا تكاد ترى أمها فضلًا عن أن تطيل المقام معها. وخادمها السوداء كعهدا تلقاها بابتسامها العابس، ولكن فى الدار أشخاصًا آخرين وكائنات أخرى وأشياء أخرى لم تكن تألفها من قبل، فالدار فسيحة مترامية الأطراف كثيرة الحجرات واسعة الأفنية، وفيها إخوتها وقد بلغوا الآن خمسة، ويوشكون بعد قليل أن يبلغوا ستة، منهم من شب حتى لم يكد يبقى بينها فرق فى السن والقد، ومنهم من لا يزال صبيًا فيه كثير من المرح والفرح، وفيه كثير من الحركة والنشاط، ومنهم من لا يزال طفلًا يحبو أو يدرج وهو يقدم لإخوته ضروريًا من اللذة وفنونًا من المتعة، يوشك أن يكون لهم لولا أنهم لا يستطيعون أن يعنفوا به أو يقسوا عليه. وفى الدار علتها التى كانت تدعوها خالتها، وهى "منى" هذه ذات الوجه الطلق، والشعر الباسم، والشباب الغض، والقلب الذى يفيض رحمة وحنانًا. وفى الدار خدم رجال ونساء، منهم من يعنى بأمور الدار تنظيفًا وتنظيمًا وتنسيقًا وإعدادًا للطعام والمائدة، ومنهم من يعنى بهذه الحيوانات التى كانت تقيم مع أهل الدار فى أماكن خصصت لها والتى كانت تمثل ما ألف فى المدن والقرى من هذه الحيوانات التى تعاشر الناس وتمنحهم خفض الحياة ولينها. ففى الدار البقر والجاموس، وفيها الحمر والخيول، وفيها الدواجن ذوات الريش على اختلافها. وقد كان الحاج مسعود قد قضى فيما بينه وبين نفسه ألا يولد لابنته مولود إلا أهدى إليه شيئًا من هذا الحيوان، فلهذا جاموسة، ولهذا بقرة، ولهذا فرسًا. وكانت الأسرة تتخذ الدواجن وتستكثر منها؛ فكانت دار خالد خليطًا غريبًا من دور أهل المدن ودور أهل الريف. وكان هذا

كله يملأ الدار حياة صاخبة كثيرة الضجيج والعجيج، كثيرة الحركة والنشاط، مختلفة أنواع العمل. وكان أبناء الدار يجدون في هذا كله اللذة كل اللذة والحياة كل الحياة، ولو تركوا وما يشاءون لما ذهبوا إلى الكتاب ولا إلى المدرسة، ولآثروا أن ينفقوا أوقاتهم يشهدون هذه الحركات الكثيرة المتنوعة، يلوذ بعضهم بالمطبخ حيث يهيأ الطعام وحيث لا يعدم من تلقى إليه طرفه من طرف هذا الذي تهيئه. ويلوذ بعضهم بقاعة لتتور حيث يهيأ الخبز وتتخذ ألوان الكعك والفطير. ويقف بعضهم عند هذه التي تحلب البقرة أو الجاموسة، أو عند هذه التي تمخض اللبن، أو عند هذه التي تدعو الدجاج لتلقى إليهن الحب. ولكن خالداً كان قاسياً على بنيه يأخذهم بالحزم في أمر الكتاب والمدرسة ولم تكن زوجه أقل منه شدة ولا حزمًا، فكانوا يذهبون كارهين على كتابهم ومدرستهم، ثم يعودون فرحين إلى دارهم. وكانت سميحة وأختها بين هذا كله سعيدتين راضيتين قد أنسيتا ما أحستا من ألم أو وجدتا من شطف في حياتهما الأولى. وما كان أحرص سميحة على أن تتصل هذه الحياة الناعمة الفرحة، لولا أن أباهما كان بعيد الصوت في مدينته الأولى والثانية، متهمًا بأن له حظًا من يسار، متهمًا أيضًا بأن حياته حديثه، فيها كثير من حضارة وترف وتأنق، ولولا أن سميحة نفسها كانت على حظ من جمال يتحدث الناس به في المدينتين، فلم تكذب نبلغ الرابعة عشرة حتى خطبها الخاطبون، ولم تكذب تبلغ الخامسة عشرة حتى عادت إلى مدينتها الأولى لتزف فيها إلى زوج له شيء من ثراء ومكانة، ولكن له بنين وبنات تركتهم له امرأته الأولى. فاستأنفت سميحة حياة الثالثة لسنا في حاجة إلى أن نعرض لها ولا أن نقص أبناءها؛ فلم تكن هذه الحياة الثالثة إلا حزنًا متصلًا وعذابًا مقيمًا، أبناء لا يلعبون بالحياة إلا ليسرعوا إلى الموت أو ليسرع إليهم الموت، وثروة تضخم ويطمع فيها أبناء الضرة، وزوج تتقدم به السن فيدركه الضعف قليلاً قليلاً، ويعظم حظه من الأثرة شيئاً فشيئاً، ويزداد سخطه على هذه الزوج الجميلة ذات الحسب والنسب، ولكنها على ذلك ميلاد مفقاد، كأن بينها وبين الموت عهدًا أن تلد له وأن يسرع إلى بنيتها فيختطفهم اختطافًا. وقد عرفت سميحة الدموع ولما تتم السابعة عشرة من عمرها، وقد نيفت سميحة على السبعين ولم يعرف أنه أنفقت يومًا لم تسفح فيه عبرة ولت تذرف فيه دمعًا، إنما كانت حياتها بكاء متصلًا: بكاء يأتي من النكس، وبكاء يأتي من قسوة الزوج، وبكاء يأتي من كيد أبناء الضرة، وبكاء يأتي من فقد الزوج آخر الأمر، وبكاء يأتي بعد هذا كله من سيرة من سلم لها من البنين والبنات ومما كان يختلف على حياتهم من ظروف وخطوب.

فأما جلنار فقد ظلت الفتاة الوحيدة في هذه الأسرة بين إخوتها الشباب والصبية والأطفال، وبين أمها السقيمة، وعلتها الكريمة، وأبيها الرحيم. وكانت تجد في حياتها النعمة كل النعمة، ولكنها لم تكن تجد في حياتها الرضا كل الرضا، فقد كانت تعرف قبح وجهها وترى دمامة

صورتها، فتكره ذلك وتضيق به، ولم يكن الشباب من إخوتها يتخرجون من التندر عليها والسخر منها، يجدون بذلك حيئاً ويمزحون أحياناً، ويؤذونها به على كل حال. وقد كانت فتاة الأسرة، وكان فيها جلد وقوة ونشاط للعمل وسبق إليه، فما أسرع ما ألفت الأسرة منها ذلك ورأته لها طبيعة، ثم رأته عليها حقاً، ثم رأت تقصيرها فيه ذنباً، فاندفعت الفتاة إلى العمل ثم دفعت إليه. وأى بأس فى ذلك وقد كان عملاً كريماً شريفاً! وأى حرج فى أن تعنى الفتاة بإخوتها الصغار تحملهم وتنشئهم وتعلمهم، وقد شغلت أهمهم بأمور البيت وبمن كان يولد لها من البنين كل عامين أو فى اقل من عامين! فهؤلاء الصبية إخوتها، وهى أرأف بهم وأعطف عليهم من الخدم. وأى حرج فى أن تعمل الفتاة مع العاملات فى إعداد الطعام وتهيئة الخبز وغسل الثياب! ففى ذلك كله تعليم لها أى تعليم، وهو يعدها أحسن إعداد لتكون ربة البيت يوم يصبح لها بيت. وإذا لم تكن الفتاة جميلة رائعة الجمال ولا حسنة بارعة الحسن، فلا اقل من أن تكون صناعاً تحسن الإشراف على أمور البيت والنهوض بأعبائه المختلفة. فليس من المحقق أنها ستجد لنفسها داراً كدار أبيها، فيها الرخاء والثروة، وفيها الخدم من الرجال والنساء. ومن الممكن بل من المرجح أن بيتها سيكون متواضعاً متضائلاً مقتراً عليه فى النفقة، فستزف يوماً إلى سالم. وهل سالم إلا حذاء يعيش من عمل يده وعرق جبينه؟! فيجب أن تكون زوجه ماهرة فى تدبير أمرها، والعناية ببيتها، والقيام على تربية من سيتاح لها من الولد. وقد ألقى فى روع الفتاة قبل أن تجاوز الصبا وتبلغ الشباب أنها خطب سالم الآن وزوجه غداً، قد اتفق على ذلك الأبوان خالد وسليم، واتفقت على ذلك نفيسة وزبيدة، وألحت زبيدة فى ذلك أثناء مرضها الذى ماتت فيه، فليس عنه منصرف وليس إلى تبديله من سبيل. من أين يأتى التبديل وقد أصبح هذا أمراً مقرراً تراه الأسرتان كما تريان مقدم النهار ومقدم الليل! فكانت الفتاة تتحدث إلى نفسها بهذه الخطبة الواقعة وبهذا الزواج المنتظر. وكانت تفكر كثيراً فى هذا الشاب الفتى القوى الجميل المرح، الذى يحسن الدعابة ويؤثر المزاح على كل شيء، والذى كان ينتهز كل فرصة ليزور عمه وأبناء عمه فى مدينتهم هذه، فيطيل الزيارة، ويقوم بينهم فيطيل المقام، وربما أسرف فى ذلك حتى يدعوه أبوه بالكتاب يتبع الكتاب، وفيه اللوم والتأنيب، وفيه التوبيخ والتقريع، وكانت الفتاة البائسة مستيقنة فيما بينها وبين نفسها بأنها الغرض من هذه الزيارات الكثيرة ومن هذه الإقامة المتصلة؛ فقد كانت تحب الفتى حباً شديداً وتؤثره على كل إنسان وعلى كل شيء. لم تكن تتحدث بذلك؛ فحياء الفتيات وآداب الريف تمنع من مثل هذا الحديث، ولكنها كانت تديره فى رأسها مصبحة ممسية، وتستحضره فى قلبها أثناء يقظة النهار ونوم الليل. وكان ذلك يعينها على عملها المتصل المرهق الذى جعل يزداد اتصالاً وإرهاقاً كلما تعقدت أمور الدنيا. وكانت أمور الدار تتعقد فى سرعة مدهشة؛ فقد كثر الأبناء وكثرت حاجاتهم، وعظم أمر الأسرة وكثر الزائرون لها والملمون بها من الضيف. وجعلت "منى" تخفف شيئاً فشيئاً من أثقال أعبائها على الفتاة. والفتاة ماضية فى العمل جادة فيه

مخلصة له، تستعين عليه بهذا الحب الدفين، وبهذه الآمال العراض التي كانت تزين لها كل شيء في الحياة إلا وجهها وخلقها؛ فلم يكن إلى تزيينهما سبيل.

وكان حب الفتاة على شدة كتمانها إياه وحفظها له يظهر فجأة إذا ذكر اسم سالم أو حضر شخص سالم على غير انتظار. هناك تبرق عيناها، ويضطرب على وجهها المظلم الجهم نور ضئيل لا يلبث أن ينمحي كأنه هذه الأضواء الطارئة الضئيلة التي تتبسط على قطعة من ظلمة الليل لحظة ثم تزول كأنها لم تكن. وكان هذا الحب الكمين يظهر ملحوظاً حين يقيم سالم في الأسرة قليلاً أو كثيراً؛ فق كانت الفتاة تلحظه لحظات مختلسة لها معناها، وكانت تتجنب الحديث إليه، وتتجنب أن تدعو حديثه إليها، ولكنها كانت تلتهم حديثه إلى غيرها من إخوتها التهاماً، تتسمع عليه إذا تحدث إلى رفاقه من بعيد، ثم كانت تؤثره بكثير من الطيبات. وكان لها إلى ذلك مسالك تملأ القلوب رحمة وحناناً؛ فلم تكن تختصه بشيء دون غيره من إخوتها، وإنما كان عطفها على إخوتها وإيثارها إياهم بطيبات المطبخ والتتور، ودعوتها إياهم إلى ما يلهي ويسر، كان هذا كله أكثر حين يزور سالم الأسرة ويقيم فيها. وكانت الأسرة تلحظ ذلك كله فتمتازج به وتداعب الفتاة فيه. وكانت الفتاة تسمع المزاح والدعابة فلا تجيب إلا برفع الكتفين وضحك فيه استهزاء بما يقال، واعتراف في الوقت نفسه بأنه صحيح.

ولم تلق جلنار من خالتها شيئاً يسوءها في السر أو في الجهر، وإنما مضت أمورها على ما تحب وعلى ما تحب الأسرة. ولم تكن الفتاة تعنى بأمرها عناية كثيرة ولا تلتفت إليها التفاتاً خاصاً، بل ربما شاركت إخوتها في مداعبة هذا الشبح الذي لم يكن يعقل كثيراً مما يقال له أو يجرى حوله؛ فإذا عقل شيئاً وهم أن يتكلم فيه نطق بما يملأ الدار ضحكاً، وضحك الشيخ نفسه مع الضاحكين. فقد ألفت نفيسة أن تعيش على هامش الأسرة لا تشارك في جدها وهزلها إلا أيسر المشاركة؛ فإن دخلت في شيء من أمر الأسرة أخطأت موضع العمل أو موضع القول، فأضحكت منها وضحكت من نفسها، وعادت إلى عزلتها هادئة مطمئنة، لا يعرف أساخرة هي أم راضية، وأكبر الظن أنها لم تكن ساخرة ولا راضية، وإنما كانت تحيا حياة سلبية من كل وجه. تعيش نهارها لا تعمل شيئاً ولا تقول شيئاً، إنما تدخن، وتشرب القهوة. وتنتظر إلى ما في الدار من حركة، وتسمع إلى ما يدور حولها من حديث، تعقل من ذلك أقله وتغفل عن أكثره، وتأوى مع الليل إلى مضجعتها لا يدرى أحد أتمام فيه أم لا أتمام، ولكنها كانت تأوى إليه في ساعة معينة، وتثب منه في ساعة معينة. فأما ما يكون بين هاتين الساعتين فعلمه عند الله. وأكبر الظن أن نفيسة لم تكن تعلم منه إلا قليلاً. وقد كانت الأنباء تأتي بأن سميحة ابنتها رزقت غلاماً أو صبية، وبأن سميحة ابنتها فقدت هذا الصبي من بنيتها أو هذه الصبية من بناتها، وكان هذا كله يقال أمامها فتسمع وكأنها لا تسمع، ثم لا يظهر عليها فرح ولا حزن، إنما هي الحياة الآلية

التي لا تترك لصاحبها إرادة ولا تفكيرًا. إنما كانت "منى" هي التف تفرح وتحزن لما يصيب سميحة من خير أو شر، وهي التي تسافر لتجامل سميحة أو تواسيها، وربما عادت بسميحة إلى دار الأسرة لتجد فيها عزاء عما أصابها من خطب، أو سلو عما نزل بها من هم. فإذا دخلت "سميحة" على أمها تلقتها هذه باسمه وقبلتها واجمة. ثم لم تزد على هذا الوجوم الباسم شيئًا.

على أن الأمور قد أخذت تتغير قليلاً قليلاً في الأسرة، وبدأ التغير في قلب "منى" ذات يوم أو ذات عام؛ فهذه أشياء لا يمكن أن تؤرخ باليوم ولا بالشهر. فقد كانت "منى" تنتظر المولود السابع، وتتمنى أن يكون هذا المولود طفلة، تتحدث بذلك إلى زوجها فيرفع كتفيه ويهز رأسه، لأنه لم يكن يحفل بأن تولد لها صبية أو يولد له صبي. ولعله كان يؤثر في أعماق نفسه أن يكون ولده جميعاً ذكوراً. وكانت "منى" تضيق بذلك، وربما اشتدت على زوجها في اللوم حين ترى منه هذا الإعراض عن البنات أو قلة الاكتراث للبنات. وربما قالت له: وما يعينك من ذلك ولك ابنان سميحة وجلنار؛ فأنت رجل محدود وقد رزقت البنات والبنين جميعاً، فما عليك أن أكرم أنا هذه النعمة؛ وكان خالد يضحك لهذا الحديث، ولكن "منى" كانت تغتاظ لهذا الضحك، وكانت تقول: إن الصبي لا يكاد يدرج حتى يرسل إلى الكتاب ثم إلى المدرسة ثم يسعى في حياته؛ فأمه تحرم لذة الاتصال الدائم به قبل أن يتجاوز السادسة من عمره، ينصرف عنها إلى درسه ولعبه، ثم إلى عمله وامراته وبنيه إذا تزوج. فأم الصبية فإنها لا تبرح البيت إلى كتاب أو مدرسة أو عمل، فهي معاشرة لأمها دائماً، هي متعتها صبية وصديقتها شابة. وأختها إذا تقدمت بها السن حتى لو تزوجت. وكان خالد يسخر منها فيقول: نعم! أخت لأمها حتى لو تزوجت، كما أنك الآن أخت لأمك بعد أن تزوجت ورزقت البنين! فتجيبه "منى" ثائرة: وهل شغلن عن أمي إلا أنت وبنوك، فيقول خالد وهو يضحك: فستشغل ابنتك عنك بزوجها وبنيتها كما تشغلين أنت الآن عن أمك. ولكن الله حقق لمني رجاءها واستجاب دعاءها فرزقها صبية، ثم تتابع البنات في الدار حتى بلغن أربعاً، نشأتهم جميعاً جلنار، ومنذ أصبح لمني بنات ومنذ أخذ بناتها يسرعن إلى النمو أخذت نظرتها إلى جلنار تتحول قليلاً قليلاً، وكأن ما أودع الله قلبها من الحنان للبنات لم يكن يسع إلا بناتها هي، فجعلت نظرتها إلى الفتاة تقسو، وجعل صوتها إذا تحدثت إلى الفتاة يجفو، وجعلت معاملتها للفتاة تغلظ من يوم إلى يوم. والفتاة غافلة عن ذلك أول الأمر، ثم محتملة له بعد ذلك ثم ضيقة به وصابرة عليه آخر الأمر. وسالم يزور المدينة ويعود منها لا يتحدث في الزواج ولا يشير إليه. وسليم يزور المدينة ويعود منها لا يتحدث في الزواج ولا يشير إليه. وقد كانت "منى" نفسها تتحدث في أمر هذا الزواج قديماً فقد أصبحت الآن لا تتحدث فيه ولا تشير إليه، إنما يلمح به الفتيان من شباب الأسرة تلميحاتاً قليلاً ضئلاً لا يلبثون أن يكفوا عنه ويخوضوا في غيره من الجد والمزاح. ثم تنسى الخطبة نسياناً تاماً، ولا يعرض أحد لهذا الزواج بلفظ أو إشارة. والفتاة ترى وتفكر، وتألم وتصبر، وتنتظر إلى وجهها في المرأة ثم تعكف على نفسها في صمت حزين. ولعلها أن تخلو إلى نفسها إن وجدت للخلوة وقتاً، فتعدد وتبكي كما تعدد النساء ويبكين، حتى إذا أحست نبأه أسرع إلى بكائها فالتهمته التهاماً، وإلى دموعها فشربتها

حتى تشرق بها، ووثب مقبلة على بعض اعمل كأنهما لم تكن فى بكاء ولا تعديد. وبمقدار ما كانت سيرة "منى" تتغير مع جلنار كان عطف جلنار على أمها يشند ويزداد؛ فقد أخذت تعنى بها عناية خاصة فى اللفظ واللحظ والإشارة والمعاملة. وكانت فى الفتاة جفوة هى خير مظهر من مظاهر الحب والحنان؛ فكانت إذا جفت على إنسان فى قول أو عمل دل على ذلك على أنها تؤثره بالود الخالص والحب العميق. وقد أخذ حظ أمها يزداد من صوتها الغليظ وألفاظها الجافية ونظراتها الحادة وحركاتها العنيفة، فكانت تقدم إليها القهوة إذا أصبحت كأنما تنهرها نهرًا شديدًا، وكانت تتحدث إلى أمها فى صوتها المرتفع الحاد. فإذا ظلت أمها ذاهلة كعهدها اندفعت إليها عنيفة بها فهزتها هزًا شديدًا، وهى تقول: إنى أكلمك ألا تسمعين! وإذا سمعت فهلا تجيبين! وربما اختلطت من أمها أثناء هذه العنف قبلة سريعة خفيفة لا تكاد تلاحظ. وقد صبرت نفيسة على هذا العنف، لم تحسه أول الأمر وتكرر فى أول الليل. وأخذت الأسرة تلاحظ أن فى نفس الفتاة شيئًا أو أنها تريد من أمها شيئًا. ولكن قلوب الشباب قاسيات وقلوب الأمهات أشد قسوة إذا شغلن بولدهن، فلم يحفل أحد من الأسرة بهذا العنف الذى كانت تهديه الفتاة إلى أمها. وما يعينهم من ذلك!! فتاة حمقاء، وأم مجنونة. فليفرغ الشباب لأمرهم، ولتفرغ الأم لبنيتها ولبناتها خاصة.

وفى ذات أقبلت الفتاة ضجرة إلى أمها تتحدث إليها عنيفة بها فى الحديث. فلما أبطأت الأم فى الجواب هجمت الفتاة عليها كأنها الغول تريد أن تلتهم فريستها. فارتاعت الأم شيئًا، وهبت من مجلسها مذعورة وأسرعت إليها الفتاة وأخذتها بين ذراعيها دون أن تجد منها امتناعًا أو إباء. وتتنظر "منى" ومن حولها من بنيتها ومن نساء الدار فإذا المرأتان قد اعتنقتا، وإذا دموع غزار تمتزج وتجرى على وجهين قبيحين ملتصقين. فأما الشباب فيوشكون أن يضحكوا لولاية بقية من حياء وخوف من أمهم وأما "منى" فلا تملك دموعها أن تنهل، وإذا هى تبكى صامتة، ثم تنهض متثاقلة وتسعى بطيئة حتى تبلغ هاتين المرأتين، فتضع على رأس كل واحدة منهما قبلة مبللة بالدموع. ومنذ ذلك اليوم عاد إلى نفيسة شيء من رشدها، فعرفت أنها أم، وأن لها ابنة بجوارها تدعى جلبنار، وابنة أخرى بعيدة عنها تدعى سميحة. عاد إليها شيء من رشدها، فارقها الذهول، ولكن لم يفارقها بؤس النفس هذا الذى يضطر صاحبه إلى الإذعان، ويلجئه إلى زاوية ضئيلة من زوايا الحياة يلزمها ولا يبرحها، يرى أنها خلقت له وأنه خلق لها، وأن القضاء قد جعلها له قبرًا حيًا حتى يأتى اليوم الذى ينقل فيه من هذا القبر الذى يدفن فيه الأحياء إلى ذلك القبر الذى يدفن فيه الموتى.

أفاقت نفيسة من ذهولها وعرفت بعض أمرها، ولكنها ظلت ضئيلة ذليلة، تتحرك فكأنها الشبح، وتتكلم فكأنها الصدى، ولكن أى شبح وأى صدى؛ شبح هو الحزن بعينه، وصدى هو إلى الغناء النادب أقرب منه إلى الصوت المألوف. ولكن منذ ذلك الوقت عاد إلى جلنار شيء من

ثقة وحظ من أمل، لا لأنها انتظرت أن تزف إلى سالم، فقد جعلت تياس من هذا الزواج يأساً يزداد من يوم إلى يوم، ولا لأنها كانت تستطيع أن تلجأ إلى أمها فتبثها ما تجد من حزن، ولكن لأنها كانت تنظر إلى أمها فلا تقابل نظرتها تلك النظرات الغافلة الذاهلة الشاردة، وإنما كانت تقابل نظرات تفهم عنها، وتتحدث إلى قلبها حديثاً تفهمه دون أن يدور لسانها في فمها بالكلام القليل أو الكثير، وكان هذا الحظ الضئيل من الحب الصامت يغني هذه الفتاة وينقع ظمأها إلى الحنان، بعد أن فقدت حنان خالتها وكادت تفقد حنان إخوتها الذين جعلت قلوبهم تقسو، وأكبادهم تغلظ، ونفوسهم تجفو، وذاكرتهم تنسى ما قدمت غليهم أختهم من معروف.

ولم تكن "جلنار" في حاجة إلى أن تبحث عن العلة التي أجلت زفافها إلى سالم ثم ألغت أمر الزواج إلغاء؛ فقد كان يكفي أن ترى وجه أمها وأن تنظر إلى وجهها في المرأة فيغنيها ذلك عن كل سؤال.

والواقع أن أمر سالم لم يكن يسيراً ولا سمحاً، وإنما كان عسيراً لا يخلوا من تعقيد. لقد نشأ هذا الفتى ساخطاً أشد السخط، يرى أنه تعس سيء الحظ، لم يكد يخرج من صباه حتى فقد أمه وحتى ذاق مرارة اليتيم وعرف قسوة العلات. ثم لم يكد يعقل حتى رأى نفسه يختلف إلى حذاء يعمل عنده في صناعة الأحذية، وكان يرى أبناء عمه يختلفون إلى الكتاب ثم إلى المدارس يتخذون هذه الأزياء التي لا تخلو من ظرف، وعليهم هذه الشارة التي لا تخلو من جمال، وفيهم شيء من أنفه وكبرياء يغريهم بهما ما كانوا يحسون في أنفسهم من امتياز. فأنكر الفتى نفسه في منزله بين هاتين العلتين، وأنكر نفسه عند معلمه ذلك الحذاء صانعاً للأحذية ممارساً أقدام الرجال، وأقسم فيما بينه وبين نفسه ليهجرن دار أبيه متى استطاع، وليهجرن عمل الحذاء متى وجد إلى ذلك سبيلاً. وكان أخوه على يشاركه في هذا كله: يشاركه في الضيق بحياة البيت، وفي الضيق بهذه الصناعة التي يكرهه عليها أبوه إكراهاً، وكان الفتیان بعد ذلك يختلفان اختلافاً شديداً: فـسالم حظ حسن من ذكاء، ولعلى حظ عظيم من الغباء والغفلة. ومهما يكن من شيء فقد اتفق الشابان على هذا السخط، واشتركا في هذا الضيق، ورأى كل واحد منهما نفسه بائساً مضطهداً، واجتهد كل واحد منهما في أن يلتمس لنفسه مخرجاً من هذا البؤس وهذا الاضطهاد. فأما سالم فقد أحسن صناعته ثم انصرف عنها. ولما هم أبوه أن يلومه في ذلك أجابه الفتى في حزم قائلاً: إنك إنما علمتني هذه الصناعة لأعيش وأكفيك مؤونتي، فسأعيش وسأكفيك مؤونتي، ثم أخذ يضطرب في حياته كما يضطرب الشاب الذكي الذي يحسن القراءة والكتابة ولم يحرم يداً صناعاً وعقلاً يحسن التصرف في الأمور، فجعل ينتقل من عمل إلى عمل يكسب القليل مرة والكثير مرة أخرى، ويدفع إلى أبيه الجنيه أو الجنيهات من حين إلى حين. وقد أطرح زى أثرابه، واتخذ زى بنى عمه، فأصبح أفندينا مطربشاً. ولكنه كان يشعر دائماً بالنقص إذا لقي بنى عمه،

لأنه لا يرطن كما يرطنون، ولا يسعى إلى الشهادات كما يسعون إليها. كان يشعر فى الوقت نفسه بالتفوق على بنى عمه لأن يده لم تصفر من المال قط. فكان فى جيبه من الذهب والفضة ما لم يكن فى جيوبهم. وكان على ذلك خراجًا ولاجًا لا يضيق بشيء ولا يعيبه شيء، ولا يعرض له حرج إلا خرج منه، ولا تلم به مشكلة إلا انسل منها كما تنسل الشعرة من العجين. وكان بعد هذا كله طلق الوجه، باسم الثغر، فصيح اللسان عذب الدعابة، منشرح الصدر، لا يعرف الهم إلى قلبه سبيلًا. وما دام قد اجترأ على أبيه فترك صناعة الأحذية واستقل بأمره، فما يمنعه أن يخرج على أبيه مرة أخرى؟! وقد فعل؛ فقال لأبيه ذات يوم: لا أسمعك تحدثنى عن جنار، فإنى لم أخطبها ولم يخطر لى قط أن أتخذها لى زوجًا. قال سليم: ولكنى قد خطبتها لك. قال الفتى: فإنى لم أفوضك فى ذلك. قال سليم وقد خطبتها أمك لك. قال الفتى: فإن لم أفوضك فى ذلك. قال سليم: ولكن أمك قد ألحت على فى هذا الزواج قبل أن تموت. قال الفتى ألحت عليك أنت ولم تلح على أنا. قال سليم وقد استيأس من ابنه: أنت وما تشاء! ولكن لا تجهر بذلك حتى أفضى به إلى عمك، وسأجد فى ذلك جهدًا وألمًا، قال الفتى: لن أجهر بذلك ولن أسره؛ لأنى لا أحفل به. ولا حاجة لى أن تفضى به إلى عمى، فإنى لن أتزوج من جنار ولا من غيرها. ثم انطلق الفتى وترك أباه مترددًا بين السخط والرضا. وأكبر الظن أنه ارتاح إلى خطة ابنه، فلم يكن يحفل بأن يقضى على ابنه بهذه الفتاة الدميمة، فيكون حظه كحظ عمه خالد حين تزوج أمها نفيسة.

وأما على فلم يقل لأبيه شيئًا، ولم يترك صناعة الخياط التى اضطر معلمه وجه النهار فلا يصنع عنده شيئًا. فلما آنس المعلم منه غفلة وكسلا سخره فى قضاء الحاجات البعيدة ولم يعلمه شيئًا. وكان الفتى إذا أقبل المساء تنقل بين المساجد وحلقات الذكر، يصلى هنا ويذكر هناك، وهو لا يدوق من الذكر ولا من الصلاة شيئًا. وكان يلزم بدار أبيه فيصيب فيها شيئًا من طعام ثم ينصرف إلى حياته الفارغة خارج الدار، فإذا تقدم الليل أقبل فاستلقى على فراشه حتى يصبح فيستأنف حياة البطالة والفراغ. كان كلا على أبيه، كلا على أخيه، ضحكة لبنى عمه إذا زهرهم، ولم يكن يزورهم إلا قليلًا. وكان فرحًا دائمًا لا يأسى على شيء، ولا يفكر فى شيء، ولا يستطيع أحد أن يؤذيه بقول أو فعل، لأن الأشياء كانت تنزل على نفسه الملاء دون أن تترك فيها أثرًا حسنًا أو سيئًا. وكان سليم محبًا لابنيه ضيقًا بهما فى وقت واحد؛ ولكنه كان يؤثر سالمًا؛ لأنه أكبر أبنائه، ولأنه كان كثير النشاط حسن الشارة، يعود عليه بالدينار أو الدينارين من حين إلى حين، فيفرج أزمة أو يعين على حق. ومع ذلك فقد كان يحنو على حنوًا شديدًا، يرى فيه فتى ضعيفًا ضيق الحيلة، ويرى فى الرفق به والعطف عليه والشقاء ببطالته هذه لوثًا من الجهاد كهذا الجهاد الذى كان يحتمل مشقته بين امرأتيه. وكان مع ذلك مشغولًا عن هذين

الشابين بعمله وأهله وبينين وبنات ولدوا له، فمضى فى ترتيبهم كما مضى فى تربية سالم وعلي، أسلمهم إلى الصناع. وكان يقول لصديقه وأخيه خالد: ماذا تريد؟ لا ينبغي أن نغالب القدر ولا أن نعاند القضاء، ولا أن نكون جميعاً سادة ممتازين. يجب أن يكون أبنائى هملاً كأبناء أبيك، وأن تمتاز أنت ويمتاز أبنائك؛ فسحب الأسرة أن يمتاز فرع من فروعها. ولكن صدقني، إنى أراك أحمق، مغفلان تتفق مالك الكثير دون أن تدخر منه شيئاً. أليس غريباً أنك لا تملك داراً تقيم فيها! فدارك هذه ملك للحكومة، وستخرج منها يوماً من الأيام. وما أظن أنك ستأوى بأهلك وبنيك وبناتك إلى دار أبيك الحربة المهدمة. فأطعنى وأرسل إلى جنيهاً فى كل شهر أدخره لك، حتى إذا اجتمعت لى عشرون أو ثلاثون جنيهاً اشتريت لك قطعة من الأرض، واتخذت لك فيها داراً. أطنى وأرسل إلى جنيهاً ف كل شهر، وأحتجز أنا جنيهاً فى كل شهر أيضاً، ونشتري قطعة واسعة من الأرض نقيم عليك دارين متجاورين، إحداهما لك والأخرى لى. فسيتفرق أبنائك فيما ينتظر لهم من عمل، وسيتفرق أبنائى أيضاً، وسيعود كل منا إلى صاحبه فى الشيخوخة كما كان كل واحد منا لصاحبه فى الشباب. وكان يتحدث إليه فى ذلك ملحاً دائماً، يجد حيناً ويمزح حيناً، وكان يتحدث إليه فى أمور كثيرة إلا شيئاً واحداً لم يستطع أن يتحدث فى هلا مصرحاً ولا ملمحاً، وهو هذه الخطبة التى بعد بها العهد، وهذا الزواج الذى كثر تأجيله، وهذه الفتاة التى طال انتظارها ولم يخطبها أحد؛ لأن الناس قد تسامعوا بأنها خطب لابن عمها منذ الصبا. لم يكن يجرو على أن يعرض لهذا الحديث فقد كان يعلم علم ابنه. ولم يكن خالد يجرو على أن يعرض لهذا الحديث فقد كان الحياء يمنعه من ذلك. وكان سالم يمرح بين المدينتين، وربما أتيح له السفر إلى القاهرة، فكان مرحة فيها أكثر تنوعاً وأبعد مدى. وكانت الفتاة تعمل وتعمل وتشقى بالعمل، لا يدرى أحد أتفكر فى خطبها أم لا تفكر، أتشقى بهذا التفكير أم لا تشقى. ولكن المحقق أنها كانت شقية بقسوة خالتها التى كانت تزداد كلما تقدم بناتها نحو الشباب.

ومن الحماسة الحمقاء والجهالة الجاهلاء أن يحاول محاول إحصاء الأيام والليالي وهى تتابع ويقفو بعضها إثر بعض، لا يدري أحد متى ابتدأت، ولا يعلم أحد متى تنتهى. وأشد من ذلك حمقاً وأعظم من ذلك جهلاً أن يحاول محاول إحصاء الحوادث التى تقع فى هذه الأيام المتتابعة والليالي المتتالية؛ فليس إلى إحصاء هذه الحوادث من سبيل حين تحدث لفرد واحد، فكيف بها حين تحدث لأسرة كبيرة أو صغيرة، وكيف بها حين تحدث لمدينة من المدن أو إقليم من الأقاليم أو جيل من أجيال الناس! فهى متنوعة كثيرة التنوع، مختلفة عظيمة الاختلاف، يعظم بعضها ويحل خطره حتى يصبح له فى حياة الفرد والجماعة أبعد الأثر. ويهون بعضها ويدق شأنه حتى لا يحفل به حافل ولا يلتفت إليه ملتفت، وهو مع ذلك خيط مهما يكن دقيقاً هين الشأن فله مكانه ذو الخطر فى هذا النسيج الذى ينسجه مر الأيام وكر الليالي والذى نسميه الحياة. وقد فطن لذلك الذين يكتبون التاريخ ويسجلون الأخبار، والذين يقصون القصص ويتحدثون بأبناء الماضي، فقال قائلوهم: عاش ما شاء الله أن يعيش، وأقام ما أتاح الله له أن يقيم. وقال قائلوهم: مرى يا أيام وذكرى يا ليالى، فما أسرع ما يكبر أبناء الأحاديث! وليس لهذا كله إلا معنى واحد، هو أن محاولة إحصاء الأيام والليالي عبث، ومحاولة إحصاء ما يقع فيها من الحوادث والخطوب سخف، فالخير أن نطوى من ذلك كله ما يجب أن يطوى، وألا نقف من ذلك كله إلا عندما يستحق أن نقف عنده ونفكر فيه، ونحن مع ذلك لا نحسن تمييز اليوم ذى الخطر من اليوم الذى لا خطر فيه، ولا التفريق بين الحادثة ذات الأثر البعيد والحادثة التى ليس لها أثر قريب أو بعد، وإنما نحن نقدر الأيام الحوادث كما نستطيع وكما يصور لنا العقل والخيال. فأما تقديرها كما ينبغى أن تقدر، وتصويرها كما يجب أن تصور، فذلك شيء أكاد أعتقد أنه أبعد مثلاً من أن يبلغه طمع الطامعين وطموح الطامحين. والشيء الذى أستطيع أن أقرره وأنا صادق عند نفسى سواء أصدقنى القارئ أم لم يصدقني، هو أنى تتبعت حياة هذه الأسرة من قرب وفى كثير من العناية والدقة، فرأيت كثيراً من الأحداث التى عرضت لها والخطوب التى ألمت بها خليفاً أن تكتب فيه القصص وتنشأ فيه الكتب وتؤلف فيه الأسفار الطول. وأكبر الظن أن هذا ليس مقصوراً على هذه الأسرة، وغنما هو شأن كثير من الأسر المصرية فى هذا العصر الخطير من حياة مصر، حين أخذ القرن الماضى ينتهى وأخذ القرن الحاضر يبتدىء، وأخذت الحياة المصرية تنتقل من طورها القديم إلى طورها الجديد فى عنف هنا وفى رفق هناك. فى هذا الطور من أطوار الحياة المصرية اختلفت على أسر المدين والأقاليم خطوب، لم يكد يحفل بها أحد، ولا يلتفت إليها إنسان، وهى مع ذلك قد خلقت مصر خلقاً جديداً وبدلتها من خمولها القديم نباهاة، ومن جمودها القديم نشاطاً. وما من شك فى أن الذى أقصه من أبناء هذه الأسرة - أسرة خالد -

يمكن أن يقص مثله من أبناء أسر أخرى كانت تتصل بها صلة الجوار أو صلة المشاركة في العمل وفيما كان العمل يترك في حياتها من آثار. وأنا مع ذلك لا أقص من أبناء هذه الأسرة إلا أقلها وأيسرها؛ فقد كثر أبناؤها وبناتها، واختلفت بهم وبهن نوب الأيام، وذهب كل واحد منهم مذهبه في الحياة، كما دفعت كل واحدة منهن إلى طريقها التي رسمت لها من قبل؛ لم ترسمها لنفسها ولم يرسمها لها أبوها، وإنما رسمها لها القضاء الذي ليس للإنسان عليه سلطان. وحسبى أن أسجل أن الأعوام لم تكد تتقدم بهذه الأسرة في موطنها الجديد حتى كان أبناؤها قد شبوا واستنفدوا ما كان يمكن أن تمنحه الأقاليم لشبابها من العلم والمعرفة في ذلك الوقت. فلم يكن بد من أن يرحلوا إلى القاهرة حيث يطلب العلم ويلتمس الرقي، وقد فعلوا وهذه كلمة يسيرة تقال لحظة قصيرة، وتكتب في حيز ضيق جداً من الورق، ولكن التفكير فيها ينحل إلى آلام لا تحصى، ومتاعب لا تعد، وجهود لا يكاد يتصورها العقل، وعواطف منها ما يسر ويرضى، ومنها ما يسوء ويؤذى. فلم يكن انتقال الأبناء من الأقاليم البعيدة إلى القاهرة في آخر القرن الماضي وأول هذه القرن من السهولة واليسر كما هو في هذه الأيام، وإنما كان شيئاً عسيراً كل العسر، معقداً أعظم التعقيد. كان يحتاج إلى كثير من النفقات لم يكن راتب خالد يستطيع أن ينهض به. وكان يحتاج إلى كثير من الجهد في إسكان هؤلاء الشباب في المنازل التي تلائمهم، وتمكنهم من العيش الذي يستطيعون أن يطمئنوا إليه، وحمايتهم من الخطر الذي يمكن أن يتعرضوا له في هذه الدنيا التي كان أهل الأقاليم يرونها عالماً غريباً مملوءاً بما يعرض الشباب لأعظم الأخطار وأشدّها نكراً. وكان هذا كله يشغل نهار خالد وامرأته، ويؤرق ليل خالد وامرأته، ويصرفهما عن كل شيء، ويملأ رعوسها بالخواطر المقلقة، وقلوبهما بالعواطف المزعجة. وكان سليم يرثى لهما ويشمت بهما، لا يخفى شماتته ولا يبخل برثائه. كان يحبهما ويعطف عليهما، كفاً يؤذيه ما يجدان من مشقة وجهد. وقد نهاهما منذ الزمان الأول عن هذا الطموح الذي لا يلائم بيئتهما، وعن هذه الآمال التي لا يقدران على تحقيقها، كم نصح لهما بأن يدفعا أبناءهما إلى المصانع ليتعلموا فيها ما يسكبون به القوت وما يعينون به أبويهم إذا تقدمت بهما السن. وكما قال لهما: إن المدارس لم تنشأ لأبناء الفلاحين وأوساط الناس، وإنما أنشئت لأبناء الذوات من الترك والأغنياء من المصريين، فلم يسمعا ولم ينتصحا، فهما الآن يذوقان مرارة الغرور، ويبلوان ثمر العناد. وأغرب من هذا أن شيطاناً مريداً قد استقر في بيت خالد ولزم أذنيه وأذنى امرأته وجعل يوسوس لهما في النهار ألا يسمعا لنصيحة سليم وأضرابه، وألا يقنعا لأبنائهما بالشهادات اليسيرة والمناصب التي تتال بقليل من الجهد وتغل على أصحابها رواتب ضئيلة يراها أهل الإقليم شيئاً عظيماً وهي في حقيقة الأمر لا تقيم الأولاد ولا تحمي من الجوع، فضلاً عن أن تبيح لأصحابها ما هم أهل له من الترف وخفض العيش. وكان هذا الشيطان المريد يقول لخالد وامرأته مصباحاً وممسياً: انظر إلى رئيس المصلحة وقاضى المحكمة ومأمور المركز، فأما أحدهم فيعلم ابنه

ليكون قاضيًا. وأما الآخر فيريد لابنه أن يكون مهندسًا. وأما الثالث فيطمع لابنه في أن يكون طبيبًا. فأى فرق بين أبنائكما وأبناء هؤلاء الناس؟! إن قامتهم جميعًا تعتدل في السماء، وليس أبناء هؤلاء الموظفين الكبار وحدهم هم الذين تعتدل قامتهم في السماء على حين يمضى أبنائكما على أربع. إنهم جميعًا قد سلخوا إلى الحياة طريقًا واحدة، وسيسلكون بعد أعمار طوال إلى الموت طريقًا واحدة، فما بالهم يختلفون في الطبقة ويتباينون في المنزلة بين الحياة والموت؟! وكان هذا الشيطان المرید يقول لخالد وامرأته فيما كان يقول: انظر إلى رئيس المصلحة كيف يستكبر ويستعلي، وكيف يثنى عطفه ويلوى جيده إذا تحدث إلى مرعوسيه ومنهم خالد! وانظر إلى امرأة هذا الرئيس كيف تدل وتنتيه وتتنظر من عل إلى نساء الموظفين حتى يسعين لزيارتها! وانظر إلى أبناء هذا الرئيس إنهم لا يستكبرون على أبنائكما ولا يستعلون، كما يستكبر أبواهم ويستعليان، لأنهم قد ذهبوا إلى كتاب واحد ثم إلى مدرسة واحدة. فإن أمسكتما أبنائكما عندما حفظا من العلم وحصلا من الشهادات وقفوا هم وتقم أترابهم، ثم لا تمضى الأعوام حتى يكون أبنائكما في نفس منزلتكما، وحتى يكون أبناء هؤلاء الموظفين لهم سادة وعليهم رؤساء، مع ذلك فقد كان أبنائكما يتفوقون في المدرسة على أبناء هؤلاء الموظفين، وهم جديرون أن يتفوقوا عليهم في المدارس الأخرى، وهم جديرون آخر الأمر أن يسبقوهم ويظفروا بما لم يظفروا من وسائل الفوز. فانظروا كيف تجدان أنفسكما يوم يظفر أبنائكما بالشهادة أو المنصب ويقصر على الشهادة أو المنصب أبناء الرئيس والقاضي والمأمور!. وكان هذا الكلام يقع في قلب خالد وامرأته موقعًا غريبًا، ينسيهما كل شيء ويدفعهما إلى التضحية بكل شيء. فكان كل عام دراسي يشهد بيع شيء مما كانت الأسرة تعتز به وتحرص عليهن فيبيع البقر والجاموس والخيول شيئًا فشيئًا، ثم بيع حلي "منى" شيئًا فشيئًا حتى أصبحت أعطل من الفقيرات بين نساء المدينة. فلم تكن في المدينة امرأة فقير غلا ولها القرط من الذهب. أو الفضة تعلقه في أذنيها أو الخلخال من الفضة تدوير حول ساقها، وقد كان لمنى من هذا الحلى أنفسه وأكرمها، ولكنها جعلت تنزل عنه عامًا بعد عام للمعلم جرجس هذا الذي كان يلم بالبيت إذا دعاه خالد فيأخذ الحلى في يده ينظر إليه فيطيل النظر، ثم يزنه ثم يؤدي ثمنه إلى خالد، يدفعه خالد على بنيه ليؤدوا منه أجور التعليم. ثم اضطر خالد أن يقتصد في زيه؛ فقد كانت ثيابه من أزهى الحرير وأجود الصوف، ينفق في ذلك ما لا ينفق أصحابه مثله، فإذا هو يزهد في هذا كله، ويتخذ ثيابه من القماش الأبيض والصوف الرخيص. وليس هو وحده الذي يقتصد فامرأته وبناته يذهبن في الاقتصاد مذهبه ويسرن سيرته؛ فقد كان يجب أن يتعلم الأبناء وأن يعيشوا في القاهرة عيشة راضية.

ولم يكن أمل في أن يستعين خالد أباه، فقد بعد العهد بثروة أبيه، وأصبح على شيئًا فانيًا ضريرًا أعزت عيالاً على أبنائه، يرزقونه في المدينة ويودون لو أقام كل واحد منهم جزءًا من

السنة ليعيش مع أهله كما يعيشون حتى لا يكلفهم نفقة خاصة. ولكن عليًا مصمم على أن يبقى في داره ليعيش في غرفة أم خالد وهو لا ينتقل من هذه الدار إلا إذا أقبل الشتاء من كل عام، فإنه يحب أن ينفق الشتاء عند خالد حيث يجد من الدفء والراحة والخدمة ما لا يجده في داره. ولكنه قد أخذ على خالد عهدًا إن أصابته علة أن يرده إلى داره وإلى غرفة أم خالد من هذه الدار، لأنه يريد أن يموت حيث ماتت زوجته الأولى. وليس أمل في أن يستعين خالد حماء الحاج مسعودًا، فقد عبث الحاج مسعود بالثروة، وقد تعرضت تجارته لمثل ما تعرضت لها تجارة على من هذا الخطر الذي جاءها من القاهرة على أيدي هؤلاء الشياطين الذين نظموا التجارة تنظيمًا حديثًا ويسروها تيسيرًا لا يقدر عليه الحاج مسعود وأمثاله. ولولا أن الحاج مسعود كان رجلًا صالحًا بأدق معاني الكلمة لتعرض من البؤس لمثل ما تعرض له علي، ولكنه ضبط نفسه وحزم أمره وكف عن التجارة حين رأى أن المضي فيها خطر، واكتفى بما كان عنده من مال ينفق منه على نفسه وبير منه بناته وأصهاره في اعتدال ورفق، ثم لزم شيخه أشد ما يكون له لزومًا، حتى إذا مات الشيخ لم يلزم ابنه الحدث، وإنما أعقته السن في داره، فكان يزور الشيخ الفتى بين حين وحين. ولو قد بقيت على الحاج مسعود ثروته عريضة وتجارته نامية لما استعانه خالد على ما كان يلقي من الجهد في تعليم بنيه. فقد كان خالد شديد الحياء، وكانت امرأته أشد منه حياء، وكان الزوجان يجدان لذة غريبة في هذا البؤس الذي كانا يضطران الأسرة إليه لتعليم أبنائهما. ومن الحق أن هؤلاء الأبناء كانوا يكافئونهما أحسن المكافأة على ما كانا يبذلان من هد ويحتملان من ضنك. فقد كانوا نابهين على الجملة. وكانوا على حال ممتازين على أترابهم من شباب المدينة، فكانوا ينجحون حين كان يخفق أبناء كبار الموظفين، وقد ظهر أحدهم بالشهادة الثانوية لم يرسب مرة واحدة، على حين أن قرينه ابن المأمور الذي دخل معه المدرسة الثانوية في عام واحد لم يزل في السنة الأولى، وقد كاد يفصل من المدرسة لولا أن أباه استعان ببعض أصحاب الجاه. فكان المأمور وكبار الموظفين يحسدون خالدًا، لا يكادون يخفون هذا الحسد. وإن خالد وامرأته يجدان في هذا الحسد لذة منكرة لا يكادان يخفيانها وكان خالد يتقى هذا الحسد بقراءة القرآن والإلحاح في الدعاء، كما كانت "منى" تتقى هذا الحسد بالبخور وبهذه الأدعية التي لا يعرف أمتجهة إلى الله أم إلى الشيطان. وكان الشباب يضحكون من هذا كله ويعبثون من أهم وأبهم جميعًا. وفي أثناء هذا كله كان بنات "منى" ينمون ويتقدمن نحو الشباب حسانيًا رائعات. وكان الأبناء يتتابعون لا يكاد يدرج واحد منهم حتى يتبعه آخر. وجلنار هي القائمة على أمر هذه الدار بإرشاد خالتها وتعتيف خالتها أيضًا. وقد كثر العمل على جلنار، فالصبية كثيرون، وشئون الدار لم يقل تعقيدها، ولكن قل فيها الخدم؛ فلم يكن يد من الاقتصاد. وكان العمل يثقل على جلنار بنوع خاص أثناء الصيف وفي إجازات الأعياد حين يقبل هؤلاء الشباب فيملئون البيت حركة ونشاطًا. والغريب أن أحدًا من هؤلاء الشباب لم يخطر له أن حال الأسرة قد

تغيرات، وأن ثراءها قد ذهب، وأن مالها قد قل. مع أنهم كانوا يرون الدار خالية مما كان فيها من الحيوان، ومع أنهم كانوا يرون أن أثاث الدار يبلى شيئاً فشيئاً دون أن يجدد، ومع أنهم كانوا يرون أنهم عاطلاً لم يبق لها خاتم تدبيره إصبعها، فقد كانوا مطمئنين إلى أن أباهم قادر على كل شيء، وكانوا واثقين بأنهم سيجدون في الدار ما تعودوا أن يجدوا من السعة والرخاء. والشيء المهم هو أن جلنار كانت تنهض بخدمتهم لا تكل، تستيقظ مع الفجر قبل أن يستيقظوا، وتنام عند منتصف الليل بعد أن يناموا، لا تفتر عن العلم ساعة، ولا تذوق الراحة لحظة، وهي بذلك سعيدة وإليه مطمئنة، لولا ما كانت تلقى من تعنيف خالتها الذي لم يكن ينقطع، لولا ما كان يوجه إليها هؤلاء الشباب الأشرار الجاهلون للجميل من مزاح لا يخلو مما يؤلم، ولولا أن سالمًا كان ينتهز هذه الفرصة فيزور الأسرة ويطيل الإقامة فيها، ويكون أشد أتراه رغبة في الدعة والرخاء وحاجة إلى الخدمة، وأطولهم لسانًا بما يسوء. وكان أحب أوقات جلنار إليها وأثرها عندها هذه اللحظات القصار التي كانت تقدم فيها القهوة إلى أبيها مع الصبح وخالتها نائمة لم تنهض بعد، فكانت تقف بين يدي أبيها وهو يأكل كسرة الخبز المجففة يغمسها في الملح ويشرب فنجانيه من القهوة السادة، ويتحدث إلى ابنته حديثاً هادئاً عن إخوتها كيف أنفقوا أمسهم وكيف يريدون أن ينفقوا يومهم، وماذا يجب أن تعد لغدائهم أو عشائهم من طعام. وكانت تحب أيضاً هذه اللحظات القصار التي كانت تصب فيهن الماء أثناء وضوئه إذا نهض من نومه بعد الغداء، حتى إذا أسبغ وضوءه تركته يصلى العصر، ثم عادت إليه بفنجانيه من القهوة، فأخذ يشربهم مستأنياً، ويداعبها حول ما أعدت من طعام، يمدح هذا اللون ويعيب ذاك، والفتاة ترد على أبيها مداعبة، ترق له حيناً وتعنف به حيناً آخر، ويبلغ بها العنف أن تشبه أباها بالقطط التي تأكل ثم لا تتحرج من أن تتال مطعمها بالمخالب. وكان أبوها يسمع منها ويضحك لها وينصرف وفي قلبه كثير من حنان، وعلى لسانه شيء من دعاء لا يسمعه في الأسرة كلها أن جلنار حمقاء ورهاء، لا تقدر على خير، ولا تستحق خيراً. وكانت جلنار تجد شيئاً من الراحة والروح حين تقدم إلى أمها قهوة الصباح بعد أن ينصرف أبوها وقبل أن تنهض خالتها، فتلقى إلى أمها كلمات سريعة كأنما تخطفن خطأ، وتلقى إليها أمها كلمات سريعة كأنما تختلسن اختلاساً. ثم يفرق العمل بين الأم وابنتها، فالفتاة مضطربة في البيت لا تستقر كأنها خذروف الوليد، أمها مقبلة على ما كانت موكلة به منذ عاد إليها بعض رشدها من الخياطة وإصلاح ما كان الشباب والصبية يمزقون من الثياب.

وكذلك مضت حياة الأسرة أعواماً وأعواماً حتى اكتمل الشاب وشب الصبي وصلاح البنات للزواج، واختلف أصغر الأبناء إلى المدارس يسرون على آثار إخوتهم الكبار. وخالد الشيخ سعيد بما يرى من تقدم بنيه واستقلال من يستقل منهم، شقى بما يرى من إعراضهم عنه

وازورار أكثرهم عليه، باذل على ذلك فى شيخوخته مثل ما كان يبذل فى شبابه من جهد ليعين من يحتاج من أبنائه إلى العون وليبر أبناءه الآخرين، وقد كانوا خليقين أن يعينوه ويبروه. وكان خالد وامراته يتحدثان ببر الأبناء وعقوقهم، فيفرحان بأبنائهما ويحتسبان عند الله ما بذلا فى تربيتهم وتعليمهم لأبنائى ثروة، ولو شئت لتركتهن لهم مالا كثيرا؛ ولكنى سأتركهن غير محتاجين إلى ميراث، ولعلمهم يستطيعون أن يؤدوا إلى أبنائهم مثل ما أدت إليهم من المعروف. وكانت جالبنا تسمع هذه الجملة فتقع من قلبها موقعا غريبا، فيه عطف على أبيها، وفيه عتب عليه أيضا. إنه لم يترك لأبنائه ميراثا؛ لأنهم أغنياء عن الميراث، ولكنه لم يترك لبناته ميراثا وهن السن غنيات عن الميراث، ولا سيما من لم تجد منهم زوجا.

وفى ذات صيف كانت الأسرة كلها مجتمعة، وكان الأمر فى الدار قائماً على قدم وساق كما يقال فق تعتمد أبناء الأسرة جميعاً أن يلتقوا عند أبويهم، فكان منهم الكهل معه زوجه وبنوه، والشباب معه زوجه التى لم تلد بعد، والشباب الآخر الذى لم يتزوج، والفتى الذى لما يتم الدرس، والصبى الذى لما ينل شهادته الابتدائية. وكان خالد الشيخ كأحسن ما يكون الشيوخ الآباء غبطة وابتهاجاً، أحب أوقاته إليه أن يجلس إلى المائدة وحوله هذه القبيلة الضخمة من الأبناء والحفدة وهم يتحدثون فى صيحة وجلبة لا يكاد بعضهم يسمع حديث بعض. وأمهم قائمة على رأس المائدة تشرف على غداهم أو عشائهم، توصى هذا بهذا اللون من الطعام، وتنبه ذاك إلى هذا اللون الذى كان يحبه صبيّاً، وتحت المقصر فى الأكل على أن يأكل، وتحمس الفاتر على أن ينشط، وجنار ذاهبة جائية ومعها أخواتها والخدم يطفن بالصحاف، ويصبين الماء فى الأقداح، ويلتقطن من الأحاديث والنكت ما يستطعن، يدخرنه لتلك الساعة التى يجتمع فيها النساء إلى المائدة فيعدنه منتدرات به مستمتعات بما يثير فى نفوسهن من لذة وابتهاج.

وأيام الأسرة تمضى فى هذا الصيف السعيد على خير ما يحب خالد وامراته، والناس يتحدثون فى المدينة بهذه الأسرة الضخمة، وبهذا النشاط الشديد الذى يذيعه أبناؤها فى المدينة كلها، فلا يبقى فيها بيت ذو خطر إلا دعا كهول الأسرة وشبابها إلى غداء أو عشاء. ولم تجد الأسرة بدءاً من أن تلقى الجميل بالجميل وترد التحية بمثلها أو بأحسن منها. فالولائم متصلة فى المدينة، يوماً هنا ويوماً هناك. وأبناء الأسرة هم مصدر هذا النشاط وسبب هذا الرخاء. ولكن رسالة برقية تصل إلى الأسرة هم مصدر هذا النشاط وسبب هذا الرخاء. ولكن رسالة برقية تصل إلى الأسرة فتحدث فيها شيئاً من رضا يمازجه شيء من عجب؛ فقد حملت هذه الرسالة إلى خالد أن صديقه وأخاه سليماً سيزور الأسرة من غد، وسيصحبه فى هذه الزيارة ابنه سالم. أما الشباب فيسرون لمقدم سالم هذا الفتى المرح الذى سيزيد إقامتهم بشراً وسروراً. وأما خالد فيسر لأنه سيرى أخاه، ولأنه سيرى أبناءه سعداء مبتهجين. ولكن خالدًا يسأل نفسه: ما بال سليم يصطحب ابنه؟ والشباب يتساءلون: ما بال سالم يصحب أباه؟ ثم هم يتساءلون: ما بال هذه الزيارة ينبئ بها البرق ولا تتم مفاجأة كما جرت عادة سالم وسليم؟ فأما "منى" فلم تسأل نفسها عن شيء ولم تجب عما كان يلقي حولها من الأسئلة بشيء، وإنما ظلت هادئة باسمه فى وجهها شيء من غموض. ثم يكون الغد ويقبل الزائران، ولكنهما لا يقبلان كما تعودا أن يقبلا، معها أمتعتهما اليسيرة وبعض ما تعودا، أن يحملها من الطرف والهدايا اليسيرة أيضاً، وإنما يقبلان هذه المرة ومن حولهما ما يحتاج إلى حمالين كثيرين وما يعيا بحمله هؤلاء الحمالون؛ فألوان مختلفة من الفاكهة، وضروب مختلفة من الطعام المصنوع، ثم الأرز والسكر والبن وأشياء أخرى لا تكاد تحصى. فأما الشباب

فيدهشون ولا يقولون شيئاً، وإنما ينصرفون إلى سالم يفرحون به ويمرحون معه. وأما خالد فيقول لأخيه: وماذا تركت لأهل المدينة وقد حملت ما كان في سوقها من عروض؟ وأما "منى" فلا تقول شيئاً، ولكنها تتلقى هذه الهدايا فرحة بها مبتهجة لها أكثر مما تعودت أن تفرح بالهدايا أو تبتهج، وابتسامتها كما هي، وصمتها باق كما هو، والغموض في وجهها باق كما هو. وأما البنات فلا يحفلن بذلك ولا يكدن يلتفتن إليه؛ فهن مشغولات بما في الدار من نشاط وبما تحتاج إليه الدار من خدمة. إلا جلنار فإنها قد حدثت نفسها بشيء وساءلت نفسها عن شيء: أيمن أن يكون سالم وأبوه قد ذكرا تلك الخطبة القديمة وفكرًا في هذا الزواج المنتظر؟ ولكنها لا تجيب عن هذا السؤال، وإنما تترك نفسها معلقة مضطربة، يدفعها الشك إلى هنا وهناك، وهي تألم لهذا الشك الثقيل. ويمضي يوم ويوم والأسرة فيما هي فيه من حياة فرحة مريحة، يزيد لها فرحًا ومرحًا نشاط سالم ودعابة سليم.

ولكن الأخوين يخلوان ساعة بعد الغداء من اليوم الثالث وقد أحس الشباب أن لهذه الخلوة ما بعدا. ولم يلتفت إليها بنات "منى". وأكبر الظن أن منى نفسها قد كانت في غرفة مجاورة تتسمع لما يقول الأخوان، أو تنتظر أن يصل إليها بعض ما يقول الأخوان. وأما جلنار فقد لاحظت هذه الخلوة وابتسمت لها ابتسامة غامضة، ومضت فيما كانت فيه من عمل، ولم يعرف قلبها قط من الخوف والرجاء مثل ما عرف في تلك الساعة. ثم يفترق الأخوان، يذهب كل منهما إلى مضجعه ليستريح بعد الغداء. فأما خالد فقد خلا إلى زوجته. وأما سليم فقد خلا إلى ابنه. والشباب يتساءلون متضاحكين، وجلنار تسائل نفسها فزعة هلعة دون أن يفطن أحد لما تضطرب به نفسها من فزع وهلع.

فإذا صليت العصر كان وجه "منى" ممتلئًا بشرًا، وكانت جلنار أول من لاحظ ذلك، فلم يزد لها إلا فرقًا وقلقًا. ولكن خالدًا يدعو إليه الكبار من أبنائه ويتحدث إليهم حديثًا يلقيه بثورة لا يكادون يخفونها. فقد جاء سليم خاطبًا يريد أن يزوج ابنه، ولكنه لا يخطب "جلنار" وإنما يخطب تفيدة كبرى بنات "منى". وخالد حائر في أمره لا يدرى كيف يرد على أخيه قوله: أيقبل هذه الخطبة فيضحى بجلنار البائسة، أم يرفض هذه الخطبة فيؤذى أخاه وهو لم يتعود قط أن يرد لأخيه طلبًا؟ وقد عرض الأمر على زوجته فلم تتكر منه شيئًا. ومعنى ذلك أنه رفض فلن يؤذى أخاه وحده بل سيؤذى معه زوجته "منى" وسيؤذى معها سالمًا.

فأما الشباب فلم يفكروا في شيء من هذا، وإنما اجتمعت كلمتهم على الرفض وعلى أن في هذه الخطبة الجديدة قحة لا تبلغها قحة، وسماجة لا تشبهها سماجة. ثم أخذ الشباب يتضاحكون ويتندرون بعمهم وابن عمهم وبهذه الهدايا الكثيرة التي لم يتعود أن يحملا مثلها. ولم تصل المغرب حتى كانت الأسرة كلها قد عرفت نبأ الخطبة، وحتى كان الفساد قد شمل أخلاق

الشباب والشيوخ والصبيان جميعًا. وكان سحابة كثيفة من الغم قد أظلت هذه الدار التي كانت فرحة مبتهجة منذ حين فملأتها حزنًا وبؤسًا. فأما الشبان فقد تفرقوا في أنحاء المدينة يلتمسون الرياضة ويخلو بعضهم إلى بعض. وأما الصبية فقد عشتهم أختهم "جلنار" فأكل منهم من أكل وأعرض منهم من أعرض عن الطعام، واضطروا آخر الأمر إلى مضاجعهم. وأما بنات "منى" فقد لذن بأمن صامتات مثلها، باسمات مثلها، غامضات مثلها أيضًا. وأما "جلنار" فقامت على خدمة الدار كما تعودت، وهيات للرجال طعامهم. فلما لم يقر به أحد منهم دعت النساء إلى طعامهن، فلما امتنعن رفعت كتفيها وهزت رأسها وأصابت قليلاً من طعام وجلست مكانها مع النساء صامتة تنتظر أن يأوى الرجال إلى مضاجعهم لتدور في البيت دورتها المألوفة. فتثق بأن الأبواب مغلقة، وبأن كل شيء مستقر في موضعه الذي يجب أن يستقر فيه. فأما قلبها فقد كان حزينًا، ولكن عهده بالحرز قديم. وأما نفسها فقد كانت يائسة، ولكن السبب الذي كان بين نفسها وبين الأمل قد كان واهيًا واهنًا، حتى إذا انقطع لم تكد تحس له انقطاعًا.

وهم خالد فيما أقبل من الأيام أن يرضى أخاه ويضحى بابنته الكبرى، ويكره أبناءه على مالا يحبون؛ فهو صاحب الحق آخر الأمر في أن يرفض أو يقبل. ولكنه وجد من بنيه مقاومة لم يعهدها من قبل؛ فهم قد أقبلوا على حقائبهم يهيئونها؛ وهم يتحدثون بالقطر التي سيركبونها ليعود كل منهم إلى موطنه الذي يعمل فيه. وهم يؤذنون الأسرة بأن الصلة بينهم وبينها مقطوعة إن قبلت هذه الخطبة الوقحة. وخالد يلجأ مع أخيه إلى رئيس المصلحة يستعينان به على هؤلاء الشباب الذين أفسدهم التعليم، وأضاعوا الحياة الحديثة من نفوسهم كل حياء، فهم يدخلون فيما لا يعنيه، ويخالفون عن أمر أبيهم. ويتوسط الرئيس فيدعو إليه شباب الأسرة، فيمتنع أكثرهم ويذهب أقلهم، يم يعودون كما ذهبوا وقد امتنعوا على الرئيس كما امتنعوا على أبيهم. وهنا بدأت دموع "منى" تسيل ولكنها لم تبلغ من قلوب أبنائها شيئًا. واضطر سليم أن يعود أدراجه ومعه ابنه، وقد هم الشباب أن يبالغوا في مساءته فيردوا عليه ما حمل من الهدايا، لولا بقية من رشد وفضل من وقار. وقد انقضت إجازة الصيف حزينة بعد مرح، عابسة بعد ابتسام. وتفرق الشباب عن أبيهم وانصرفوا إلى أعمالهم وقد استوثقوا أنهم كسبوا الموقعة. ولكن كتب أبيهم تصل إليهم بعد أشهر تحمل إليهم هذا النبأ الأليم. فقد تم الزواج، فزوجت تفيدة من سالم، وزوجت جلنار من على. وكانت هذه هي الحيلة التي اهتدى إليها سليم للخروج من هذه المشكلة. إن الشباب يأبون أن تزوج أختهم الصغرى وتترك أختهم الكبرى. فلنزوج الأختين. وما دام سالم يحب تفيدة ويخطبها فليزوج من تفيدة. فأما جلنار فإن عليًا لا يكره أن يتزوجها إذا ألح أبوه عليه في ذلك. وقد اطمأنت "منى" ورضى خالد وتم عقد الزواج. لم تستشر فيه تفيدة ولم تسأل فيه جلنار، وإنما أجريت هذه الصورة المألوفة فكان خالد وكيل ابنتيه، وكان سليم وكيل ابنيه. وانتهت أنباء ذلك

إلى الشباب متفرقين فلم يصنعوا شيئاً؛ لأنهم لم يكونوا يستطيعون أن يصنعوا شيئاً. ولكن قائلهم قال: أقسم ما هذه إلا حيلة ولتزن تفيدة إلى سالم ولتطلقن جلنار قبل الزفاف. وأقسم الشباب لا يحضرون من أمر هذا الزواج شيئاً.

ومضت أشهر وجاءت إجازة الصيف؛ فلم ينعم خالد وامرأته بزيارة أبنائهما. وقد تحقق ما قدر الشباب. فزفت تفيدة إلى سالم، وأقبل ذات يوم يحمل إلى خالد وثيقة الطلاق لجلنار.

وفى الإنسان خصال بغيضة لم تستطع الحضارة تهذيبها، بل ليس أحد يدرى أخلقت معه فعجزت الحضارة عن إصلاحها أم خلق الإنسان مبرأ منها ثم كسبته الحضارة إياها بما فرضت عليه من ظروف مرتبكة مشتبكة، وربما امتحنته به من خطوب متسابقة متلاحقة، ولكنها مركبة فيه على كل حال، تفسد عليه أمره، وتضطره إلى كثير من البغى، وتورطه فى كثير من الإثم. فلست أعرف أقسى منه إذا أبطرته النعمة، ولا أعتى منه إذا ازدهاه الغرور، ولا أجهل منه إذا سيطرت عليه الأثرة، ولا أغفل منه إذا أحس خطراً قريباً أو بعيداً على ما يختص به نفسه من الخير. وأكبر الظن أن كل هذه الخصال مجتمعة هى التى دفعت "منى" إلى أن تتشدد فى أن تزف تفيدة إلى سالم أو يزف سالم إلى تفيدة فى دار الأسرة وفى أن يجد خالد لختته عملاً فى نفس المصلحة التى يعمل فيها، بحيث لا تفارق ابنتها، وبحيث تستطيع أن ترى ختنها الأثير عندها فى الصباح والمساء من كل يوم. وقد نسيت "منى" أن أمها حاولت شيئاً مثل ذلك فكانت هى أشد الممانعين فيه، وتركت الأمر إلى زوجها، ولم تحفل بما أظهرت أمها أو أضمرت من حزن، ولم تأبه لما سفحت أمها وأمسكت من دموع. نسيت لك ولم تذكر إلا شيئاً واحداً، وهو أنها لا تريد أن تفارق ابنها فلا ينبغى لأحد أن يفرق بينها وبين ابنتها مهما تكن الأحوال ومن يدري! لعل عواطف خفية أثيمة كانت تعبت بهذا القلب الكريم فتجره مما عرف به من رحمة، وبهذا العقل النافذ فتحرمه ما قدر له من ذكاء؛ فقد انتصرت على زوجها وبنيتها وضرتها التى لم تحارب قليلاً ولا كثيراً، وينبغى أن تستغل انتصارها إلى أقصى غاياته وأبعد آماده، وأن ترى ابنتها مقيمة فى دارها، سعيدة بحبها، مستأثرة بهذا الزواج الذى لم تكن تنتظره، والذى كانت الأسرة قد أعدته لغيرها، ولم يخطر "منى" أن فى الدار فتاة خليفة أن يؤذيها هذا الجوار البغيض وأن يمزق قلبها تمزيقاً ويحرقه تحريقاً، وأن فوزها الأول خليق أن يحملها على شيء من رحمة ورفق، فتجنبت هذه البائسة رؤية هذا الفتى الذى انتظرت أعواماً وأعواماً أن يكون لها زوجاً، والذى عقدت به آمالاً وآمالاً، ثم نظرت ذات يوم فإذا هى تجزى من هذا الانتظار الطويل والصبر المتصل بالهجران والحرمان، ثم بهذه الإهانة التى لا تطيق المرأة صبراً عليها، وهى هذا الزواج الصورى الذى لم يرد حتى خدائها هى أو تضليلها، فلم يحفل أحد حتى بخداعها

وتضليلها، وإنما أريد به خداع أولئك المعارضين من أخوتها، ليتم هذا الزواج الذى هو إلى الغضب والعدوان أقرب منه إلى أى شيء آخر.

لم يخطر هذا لمنى، بل لعله خطر لها فكان دافعاً على الإلحاح فى أن تقيم ابنتها معها فى الدار.

ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل أخذت "جلنا" تعمل فى الدار كما كانت تعمل. وكان من بين عملها بطبيعة الحال أن تمضى فى خدمة أختها متزوجة بعد أن كانت تخدمها قبل الزواج، وأن تمضى فى خدمة هذا التنزيل الجديد بعد أن تحول عنها قلبه، وبعد أن أهذى إليها هذه الخيانة البشعة، كما كانت تخدمه من قبل حين كانت ترجو حبه، وحين استياست من حبه، ولكنها لم تكن تنتظر أن تنتهى به القسوة إلى الخيانة. ويجب أن نعترف بأن "جلنار" مضت فى حياتها وفى عملها كما كان تمضى من قبل لم يظهر أحد من الأسرة على أنها محزونة أو يائسة، إما لأنها لم تظهر حزناً ولا يأساً، وإما لأن الأسرة لم ترد أو لم تستطع أن ترى عليها مظاهر الحزن واليأس.

إنما هى امرأة واحدة لم تستطع أن تقيم فى الدار، ولا أن تحتمل هذا البؤس الأليم، وهى نفيسة التى تطلبت فى حياء يمازجه الذهول أن تزور ابنتها سميحة، وودت لو أذن لجلنار فى صحبتها. ولكن "منى" أجابتها فى قسوة هادئة: تستطيعين أن تزورى ابنتك إن شئت، فأما جلنار فلن تستغنى عنها الدار فى هذه الأيام.

وقد آثرت الأم البائسة أن تفارق ابنتها على أن تراها فى هذا العذاب البغيض. وكذلك خلت الدار حتى من هذا الشعاع الضئيل الذى كان ينفذ إلى قلب الفتاة من حنان البائسة، فيشيع فيه شيئاً من الطمأنينة والراحة، ولم يبق لها إلا وجه أبيها الذى كان يبتسم لها على استحياء؛ لأنه كان يقدر بؤسها فى أعماق ضميره، ويقدر قسوته عليها وتقصيره فى ذاتها. ولكنه لم يكن يستطيع أن يظهر لها أو لغيرها من ذلك شيئاً، فاتخذته سرّاً بينه وبين الله، يستغفر الله منه ويستعينه على احتمالها إن استطاع أن يخلو إلى نفسه، وما أقل ما كان يستطيع أن يخلو إلى نفسه! وأقبل مع ذلك ذات يوم شيخ متقدم فى السن من أصدقاء خالد يكاد يكون تريباً له، وكان هذا الشيخ قد فقد أهله منذ حين. أقبل إلى خالد ذات يوم يخطب جلنار، ولم يدر أحد أدفعته الرحمة إلى هذه الخطبة أم دفعته إليها الحاجة من يؤنس وحدته، أم دفعه حرصه على أن تزاد الصلة بينه وبين صديقه متانة وتوثيقاً، ولكنه خطب الفتاة إلى أبيها على كل حال. ووجد خالد فى هذه الخطبة روحاً من الله يخفف عنه بعض ندمه ويغسل عن نفسه بعض ما علق بها من الإثم والحب، فوعد صديقه خيراً على أن يشار وابنته. ثم خلا إلى الفتاة بعد أن آذن زوجه بالأمر بهذه الخطبة فى صوت هادئ لا يخلو من اضطراب، وفى ابتسامة متكلفة لا تخلو من

حزن. ولكن الفتاة استمعت له مطرقة، ثم أجابته دون أن ترفع رأسها إليه قائلة: ليس لى فى الزواج أرب، وما أحب أن أفارق هذه الدار. فلما أراد أبوها أن يحاورها فى ذلك رفعت إليه رأسها باسمه فى صوتها الذى لم يخل من عنف: ومن ذا الذى يقدم إليك وضوءك وقهوتك فى الصباح والمساء؟ ثم تولت عنه معرضة وقد استيقن أنه لن يظفر منها بشيء. فلما أعاد حديثها على زوجها قالت "منى" فى صوت ساخر بعض الشيء: إن شجرة البؤس ما زالت تؤتى ثمارها. قال خالد ولم يستطع أن يخفى عبوس وجهه: فعسى الله ألا تذوقى أنت ولا بناتك بعض هذه الثمار! ولكن الله لم يستجب لخالد دعاءه فى هذه المرة، فقد لقيت نفيدة من زوجها ما لقيت، وابتأست فى حياتها ما ابتأست.

ورأى الضحى ذات يوم بعد حين من الدهر نسوة مجتمعات يبيكين أو يتباكين، وما أكثر دعاء النساء لدموعهن! وما أيسر ما تستجيب الدموع لهن إذا دعونها! رأى الضحى ذات يوم هؤلاء النسوة مجتمعات يبيكين أو يتباكين، ولم تكن فيهن إلا أيم أو مطلقة. ولم يكن هؤلاء النسوة إلا "منى" قد تقدمت بها السن والأرامل من بناتها ومعهن جلنار كما عرفها الضحى من كل يوم منذ حملت إلى هذه الدار. فلما فرغ هؤلاء النسوة من بكائهن أو تباكيهن وأقلعت دموعهن بعض الإقلاع، أخذن يتذاكرن آمالهن الضائعة وآلامهن الملمة، وما كتب عليهن من الشقاء والبؤس. إنهن لم يلقين من الدهر قط رحمة أو روحًا. تقول "منى" لنفيدة: والله ما جر عليك آلامك، وهذا البؤس المتصل الذى أنت فيه إلا الحسد والغيرة، فقد زففت إلى زوجك وإن فى هذه الدار لقلبًا يكاد الحسد يهلكه. قالت نفيدة فى شيء من غضب: والله يا أماء ما أدري! لعلى أكون قد جنيت على نفسى حين أخذت ما ليس لى بحق. وتسمع جلنار فلا تقول شيئًا، وقد تعودت منذ أعوام طويلة أن تسمع كثيرًا ولا تقول شيئًا، ولكنها تنهض بعد حين متناقلة، فتذهب إلى حجرتها فتلزمها أيامًا، ثم لا تخرج منها إلا إلى جوار أبيها فى تلك الدار التى لا يعرف أهلها تحاسدًا ولا تباغضًا ولا تعاديًا، والتى لا لغو فيها ولا تأثيم.

بيت مرى أغسطس وسبتمبر سنة ١٩٥٤

فهرس

٦	١
١٢	٢
١٣	٣
١٤	٤
١٧	٥
١٩	٦
٢٣	٧
٢٨	٨
٣١	٩
٣٦	١٠
٤١	١١
٤٤	١٢
٤٨	١٣
٥٢	١٤
٥٥	١٥

٦١	١٦
٦٥	١٧
٧١	١٨
٧٤	١٩
٧٧	٢٠
٨٢	٢١
١٠٠	٢٥
١٠٦	٢٦

رقم الإيداع	٢٠٠٤/١١٩٥٨
الترقيم الدولي	ISBN 977-02-6675-2

١/٢٠٠٤/٣٧

طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع).